

د. نهى الزيني

أيام الأمازيغ

أضواء على التاريخ السياسي الإسلامي

دار الشروق

د. نهى الزيني

أيام الأمازيغ

أضواء على التاريخ السياسي الإسلامي

أيام الأمازيغ
أضواء على التاريخ السياسي الإسلامي
د. نهى الزيني

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الطبعة الأولى ٢٠١١

دار الشروق

٨ شارع سيدي بيه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتفون: ٢١٠٢٢٢٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٥٦٥٠

ISBN 978-977-09-2901-8

دار الشروق

المحتويات

| | |
|----|-----------------------------|
| ٨ | وتغني القافلة..... |
| ١١ | البربري الأبيض..... |
| ١٥ | الرجل الحر النبل..... |
| ١٨ | بلاد الحمج..... |
| ٢١ | الأباط الموحدون..... |
| ٢٤ | القائضون على الجمر..... |
| ٢٨ | وأشرف الأنوار..... |
| ٣١ | الفتح الإسلامي..... |
| ٣٤ | الأيام حول..... |
| ٣٨ | أكذوبة الريكونكستا..... |
| ٤٢ | كلمة غيرت التاريخ..... |
| ٤٦ | انضمام الإبل..... |
| ٤٩ | الخروج من اللة..... |
| ٥٢ | حج مبرور..... |
| ٥٥ | ورقة الأنياء..... |
| ٥٩ | دعوة الحق..... |
| ٦٢ | المسيرة والمسار..... |
| ٦٥ | بين فارتشي ودار الأرقم..... |
| ٦٨ | الرباط..... |
| ٧١ | المرايطون..... |
| ٧٤ | جهاد وامتداد..... |

| | |
|-----|------------------------|
| ٧٧ | دولة المرابطين |
| ٨٠ | تجارة رابحة |
| ٨٣ | موروكاش.. موروكاش |
| ٨٧ | أمير المسلمين |
| ٩٠ | رعي الإبل أم الخنازير؟ |
| ٩٤ | العبور الثاني العظيم |
| ٩٧ | الزلافة |
| ١٠٠ | غروب وشروق |
| ١٠٧ | المراجع |

﴿وَلَيْتَ تَتَوَلَّوْا يَسْتَفِيدَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (عمد: ٣٨)

صدق الله العظيم

الله به طريقاً خيراً منه يرد عليها عافيتها ويعيد لها نشاطها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَتَوَلَّوْا بَسْبِغِيلَ يَوْمَ يَقْبَرُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَّكُمْ﴾^(١)، فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

وهكذا مضت دولة الإسلام التي نشأت في المدينة المنورة مع هجرة رسول الله ﷺ وصحابته إليها من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح تنشر نور التوحيد الخالص ودين الله الحق في ربوع الدنيا لتخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وتحقق أمل المستضعفين في الأرض الذين استهزأ المشركون بهم وهم يومئذ قلة في مكة يوقنون بوعده الله لهم الذي بشرهم به على لسان رسوله ﷺ بأن الله سيدل ضعفهم قوة وستدين لهم عمالك الذي فضال ﷺ: «عصبة من المسلمين يقتضون البيت الأبيض، بيت كسرى»^(٢)، فكان كفار قريش يلقون المسلم حاقاً يمزق الثياب فينضاحكون منه وهم يقولون في سخرية: «مرحبا بوارث ملك كسرى»، كما كان هذا الوعد الذي بدا يومها مجرد شطحات خيال سيئاً في كشف زيف المنافقين وضعيفي الإيمان حتى قال أحدهم: «بعدنا محمد كنوز كسرى وقصر وأعدنا لا يأمن على خلافة».

لكن اليقين بوعد الله الحق الذي سكن القلوب هو الذي جعل جيلاً واحداً من المؤمنين يتحولون من قلة مضطهدة في إحدى قبائل صحراء شبه جزيرة العرب - التي يتحكم فيها ملوك الحيرة النافذة والفساسة الموزع ولاؤهم وخضوعهم بين أصحاب أعظم حضارتين يقتسمان نفوذ العالم وقتها: الفرس والروم - إلى وريثة للحضارتين معاً، وذلك مصداقاً لقول الرب تبارك وتعالى: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ عَلَى إِلَهِ رَكِيزَتُهُمْ﴾^(٣) وفي ذلك مصداقاً لقوله ﷺ: «نحقيقاً لنبوءة رسول الله ﷺ حين قال لأتباعه وهم بعد في مرحلة استضعافهم: «إذا ملك كسرى فلا كسرى بعده وإذا ملك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله»^(٤).

(١) سورة محمد، آية ٣٨.

(٢) صحيح مسلم، ومسنند الإمام أحمد، عن جابر بن سمرة.

(٣) سورة القصص، آية ٥.

(٤) البخاري ومسلم، ومسنند الإمام أحمد، عن طريق أبي هريرة وجابر بن سمرة.

وتعاضي القافلة

هكذا كانت إرادة الخالق البارئ تبارك اسمه منذ أن أبدع الأرض وما عليها وإلى أن يرثها سبحانه وما عليها: أن يكون شكل الأرض كروياً لتبدو هيئتها في تناسق كوني بديع مع فطرة التعاقب الثورية بين شروق يعقبه غروب يبرز بعده فجر جديد، وبين حياة غايتها موت ثم تدب الحياة في علقونات أخرى ترى بلا انقطاع، وأن يكون خلق الإنسان من صنف ويغدو قوياً ثم يسمي ضعيفاً مرة أخرى، وأن تولد الحضارات وتزدهر ثم تشيخ وتضمحل وتتلشى لتبرز شمس حضارات جديدة وليلة تراث ملكها وتحمل محلها.

الإسلام...

فإنه لا يشيخ أبداً ولا يضمحل ولا تغرب شمسفه فهو النور الأبدى من الأزل والذي ضمير الأرض يهبط أول الموحدين إليها: آدم وزوجه، واستمر شعاعه بإرسال ملائكة السماء يلقون في روع رسل الله على الأرض وحسي الله لتستمر قافلة التوحيد عبر الزمان لا تحيد عن طريقها وإن قل أتباعها وتبشر زادها وتاوشتها وحوش القلاقة، وحين يبرز المسير لخلل في قيادة القافلة يبرح من يقوم بأمرها ويمسك بزمامها ليخطو بها ومعها ناشران نور الرب تقدست أسماؤه في ربوع الزمان والمكان.

فالقافلة لا تتوقف أبداً ولا تحيد عن طريقها وإن تطل التخلون والتعرف المتهرفون فهي ماضية في سبيلها تنفي خبيثها فينضح طيبها، لا ينجر إلا من لحق بها ولا يجيب إلا من تاه عنها أو حاول أن يضع العرّاقيل في طريقها، وإن فريقاً أضرض أو تولى استبدال

ولأن الفارق بين المؤمنين الصادقين وبين غيرهم من ضعيفي الإيمان أو المنافقين أن الأولين يصدقون بوعد الله حتى قبل تحققه، بينما الآخرون لا يصدقون به إلا بعد أن يصبح واقعاً ملموساً وهو الفارق المستمر إلى قيام الساعة، فقد انطلق جنود الله المصدقون بوعد الله ورسوله ينشرون دينه في الأرض وقد استقر في قلوبهم يقين لا يتزعزع بوعد آخر ورد على لسان رسول الله حين تنبأ بفتح القسطنطينية ورومية - القسطنطينية هي إستانبول الآن ورومية هي روما الآن - وحين سُئل ﷺ: أي المدينة تُفتح أولاً؟ قال: «مدينة هرقل تفتح أولاً». يعني القسطنطينية^(١).

ولقد تحقق الوعد الحق ففتحت مدينة هرقل وظلت لقرون عديدة عاصمة الخلافة الإسلامية ولا يوجد مؤمن يحيا على وجه الأرض اليوم إلا وقلبه ممتلئ يقيناً بأن روما مدينة البابا سوف تُفتح يوماً بجزء عزيز أو بأكملها كما قال نبينا الصادق المصدق الذي لا ينطق عن الهوى، وما هي البشائر تترى بدخول ملايين الأوروبيين في الإسلام وما زلنا نسمع استغاثات قيادات دينية وسياسية هناك تحذر من أن أوروبا سوف تصبح إسلامية خلال عقود قليلة من الزمان، وكلما أوغلوا في حرب الإسلام والإساءة للمسلمين واضطهادهم تضاعف عدد الداخلين في دين الله ﴿وَيَتَذَكَّرُونَ﴾ وَيَتَذَكَّرُونَ اللهُ

وفي الطريق إلى تحقيق وعد الله، وبعدما تمكن المسلمون من توطيد أركان دولتهم في الشرق، انطلقوا ينشرون النور في طريقهم إلى المغرب فكان فتح تونس بعد الواقعة التي قادها عبد الله بن الزبير وتمكن فيها من هزيمة الروم وبعدها انتشر الإسلام غرباً، غير أن استقرار الدولة الإسلامية لم يك في بلاد المغرب بالسهولة ذاتها التي كانت في بلاد الشرق وذلك بسبب الطبيعة الخاصة لقبائل البربر، فمن هم البربر وما حقيقة الدور الذي لعبوه في تاريخنا السياسي؟

(١) مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو.
(٢) سورة الأنفال، آية ٣٠.

البربري الأبيض

من واحة سيوة في أقصى صحراء مصر الغربية على حدودها مع ليبيا إلى جزر الكناري - الجزائر الخالدات - في المحيط الأطلسي - بحر الظلمات كما أطلق عليه قديماً - ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى موريتانيا جنوباً تنتشر منذ قديم الأزل وحتى اليوم مجموعة من القبائل البدوية الصحراوية تسمى «قبائل البربر».

وقد أطلقت الإمبراطورية الرومانية عليها هذا الاسم المنصري الاستعماري (Barbarus) الذي كانت تطلقه على الشعوب الخارجة عن نطاق وسيطرة الحضارة



١- أماكن تواجد قبائل البربر.

الرومانية؛ وذلك لتكون هذه القبائل امتعصت على الحكم الروماني وقاومته بشراسة فلم تخضع له ولم تدخل في طاعته كباقي الأمم، وهو الاسم الذي ظل يلزمهم حتى اليوم، خاصة وأن المسلمين الفاتحين انتقلوا به من المعنى الروماني السليبي إلى معنى أكثر إيجابية يرتبط بنطقهم للغة الأمازيغية التي يتحدثون بها والتي تحوي رطانة أعجمية غير مفهومة لدى العرب فسموها ببربر من بربر الأسد أي زار بأصوات غير مفهومة.

أما عن الأصول العرقية لقبائل البربر، فلم يختلف علماء الأنثروبولوجي في أصول شعب كما اختلفوا بالنسبة للبربر باعتبارهم السكان الأصليين لمساحة شاسعة من الأراضي التي يُطلق عليها «المغرب الكبير»، وربما أدى التطور الكبير في الدراسات الجينية إلى حل قاطع لهذه الإشكالية، لكننا بدون الانحراف عن سياقنا الرئيسي وفي محاولة منا فقط لكي نستكمل الإطار الذي ستدور بداخله الأحداث فإننا سنستبعد في عرضنا هذا الأساطير والروايات المرسلة التي قيلت في أصول البربر اكتفاء بالإشارة السريعة إلى الآراء الرئيسية الموثقة:

• فالعديد من الباحثين - وبخاصة الأوروبيون منهم - يرون أن الأصول البربرية ترجع إلى الدول الإسكندنافية شمال أوروبا التي هاجرت إليها من منطقة القوقاز قبل الميلاد مجموعة من القبائل المسمى بقبائل الفاندال ثم اجتاحت أوروبا واستقر بعضها في فرنسا وإسبانيا بينما عبر البعض الآخر البحر المتوسط جنوباً حتى استقر في صحراء المغرب، وهم يدللون على ذلك بالتقارب الشكلي بين البربر وسكان شمال أوروبا الذي يتمثل في البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعر الأشقر إضافة إلى وجود تشابه هام بين اللغات الجرمانية التي يتحدثها الفاندال واللغات الأمازيغية التي يتحدث بها البربر، وما يؤيد هذا الرأي أيضاً أن قدماء المصريين أبرزوا في رسومهم البربر خاصة من قبائل الليبو التي أجتاحت مصر قادمة من الصحراء الليبية واحتلتها خلال فترة من فترات التاريخ، وكذلك الذين استعان بهم رمسيس الثاني كجنود في جيشه، بملاحم أوروبية مميزة عن الملاحم المصرية السمراء.

• بينما يرى عدد من الباحثين - خاصة من النسابة العرب - أن للبربر أصولاً عربية ثم اختلفوا في ذلك: فالبعض قال إنهم من الكنعانيين الذين طردوا من فلسطين بعدما

قتل النبي داود ملكهم جالوت؛ وهو الرأي الذي انحاز إليه ابن خلدون، وذهب آخرون إلى أن أصل البربر من اليمن الذين تفرقوا بعد سبيل الحرم واختلطوا بالقبط المصريين أثناء هجرتهم غرباً.

• أما الشعوبيون من أصحاب النزعة الأمازيغية فيرون أن أصل البربر هو الشعوب القديمة التي سكنت الصحراء الغربية منذ فجر البشرية وأنهم لم يهاجروا إليها لا من الشمال ولا من الشرق.

والحقيقة أنه قد يبدو منطقياً اعتماد ما ذهب إليه بعض الباحثين من التوفيق بين كل ما سبق: إذ يمكننا القول إن شعوباً قديمة سكنت صحراء شمال إفريقيا الكبرى وانضمت إليها قبائل الفاندال القادمة من شمال أوروبا وكنعانيون من أرض فلسطين وهرب من اليمن ثم اختلطوا بشعوب السودان جنوب الصحراء، وهذه التركيبة العرقية يظهرها لنا حتى اليوم اختلاف ألوانهم الذي يتراوح بين اللون الأشقر خصوصاً في الجزائر والمغرب وبين الحنطي الضارب إلى الحمرة أو الأسمر الضارب إلى السواد مع ملامح أوروبية منمنمة وهو ما يبدو في طوارق موريتانيا والعشائر البربرية في صحراء مصر وليبيا.

وينقسم البربر إلى مجموعتين كبيرتين تضم كل منهما عددًا من القبائل وفروعها:

١- البرانس: ومنها قبائل صنهاجة وكنانة وجزولة، وأكثرهم أهل حضارة واستقرار إذ يعيشون على الزراعة في الواحات والسهول والجبال الخصبة لكن هذا لا يمنع أن أكبر وأعظم قبائلهم وهي صنهاجة تعيش عيشة البداوة في الصحراء وتعمل أسامًا بالرعي حتى سُميت «صنهاجة الصحراء»، وترجع تسميتهم بالبرانس إلى ارتدائهم «البرنس» وهو ذلك الرداء المعروف ذي غطاء الرأس المخروطي الذي ما زال يعد حتى اليوم اللباس الوطني المغربي.

٢- البتر: ومنها قبائل أداسة ونفوسة وبنو لوا التي تنحدر منها نفزاوة وهي قبيلة طارق ابن زياد فاتح الأندلس، وأكثر البتر من الرعاة سكان الصحراء، وإن كان بعضهم كالتلمسان يعيشون عيشة استقرار وحضارة، وترجع تسميتهم بالبتر إلى ارتدائهم

رداء يشبه البرنس بدون غطاء للرأس فأطلق عليهم العرب هذا الاسم دلالة على أنهم يرتدون رداء مبتوراً أي ناقصاً.

وبعض البربر يعملون في الزراعة وذلك في المناطق الخصبة والواحات، وأهم غلاتهم التمر والزيتون والكروم، وبعضهم يعمل في استخراج الملح الصخري من مناجم الصحراوية والتجارة به بين الشمال والجنوب، أما النشاط الرئيسي لهم فهو الرعي، وهم ينقسمون في ذلك إلى رعاة الشاة أو «الرعاة الصغار» - ويطلق عليهم في الجزائر حتى اليوم «الشاوية» - ورعاة الإبل أو «الجمالة الكبار» وأماكن تركيزهم على حافة الصحراء حيث يندر الماء والطعام، وهم البدو الرحل بكل معنى الكلمة الذين يجوبون البلاد طولاً وعرضاً يقودون قطعانهم من الإبل بحثاً عن الماء والعشب ويتقلون في تجوالهم هذا الثقافة والحضارة بين الشعوب، كما أنهم يتميزون بقوة الأجساد والجلد على الشدائد والأنفة والكبرياء إضافة إلى مجموعة أخرى من الخصائص التي تميز الجمالة الكبار والتي سيكون لها تأثيرها على الأحداث كما سنرى.



٢ - بربري معاصر يرتدي البرنس والعمامة.

الرجل الحمر النبيل

هذا هو المعنى الدقيق لكلمة أمازيغي - أو كما ينطقها ويكتبها المغاربة «أمازيغي» وهو اسم آخر للبربر له جذور فينيقية حيث أطلقت لفظة «مازيس» على الشعوب القوية التي تمردت على الإمبراطورية الرومانية، ومن هذا الأصل أتت كلمة الأمازيغية وهي اللغة التي يتحدثها البربر.

وبعد هذا التوق للحرية ورفض الخضوع والجنوح نحو الثورة والتمرد أهم وأبرز خصائص الشخصية البربرية وهو ما جعلهم بمثابة حائط صد منيع أمام كل محاولات إخضاع المنطقة لحكم خارجي فينيقي أو إغريقي أو فارسي أو روماني أو بيزنطي، وقد كان حرياً به - على النهج ذاته أو من باب أولى - أن يصد عن المغرب الكبير جمحافل الفتح العربي الإسلامي وهو ما حدث بالفعل في بداية الأمر.

فحتى دخول الإسلام إلى المغرب ظلت الغالبية العظمى من البربر تدين بديانات يهودية ووثنية، إذ كان بعضهم يعبد الشمس والقمر والبعض الآخر يتخذ أصناماً يقربون لها القرابين كما أنهم مارسوا أعمال السحر والشعوذة على نطاق واسع ولهم فيها مهارة متفردة، وهو الأمر الذي لا يزال موجوداً مع الأسف حتى اليوم خاصة في الجبال النائية.

أما بالنسبة للديانات السماوية فقد اعتنق بعضهم اليهودية التي وفدت مع المهاجرين اليهود زمن الاضطهاد الروماني لهم، إلا أن المسيحية كانت أكثر انتشاراً منذ وقت مبكر، وقد دخلت إلى المغرب عن طريق مصر وذلك خلال عصور الاضطهاد المسيحي من

الرومان الوثنيين (عصر الشهداء الأول) ثم من الرومان الكاثوليك (عصر الشهداء الثاني) ففر المتمسكون بمسيحياتهم الأصلية من المصريين صوب المغرب وهناك نشروا مبادئ التوحيد والمحبة بين أهل البلاد من البربر، إلا أن المذهب الأريوسي الأصل والصافي لم يستقر كثيراً أمام التيارات الكاثوليكية القادمة مع الرومان الذين غزوا البلاد ونكّلوا بالمسيحيين الأريوسيين في المغرب وحرّقوا أناجيلهم وكنائسهم مثلما فعلوا بهم في مصر، وهو ما ترتب عليه حدوث خلافات عديدة حول طيعة المسيح أتبعها انقسام في الكنيسة الإفريقية وظهور مذاهب شتى حتى أنه عندما وصلت جيوش الفتح الإسلامي إلى بلاد المغرب وجدت بها أكثر من مائتي أسقفية تتصارع فيما بينها وسط ذلك الطوفان من الملاحدة الوثنيين.

وبينما استسلمت ممالك ضخمة ذات حضارات عريقة وجيوش منيعة بسهولة أمام الفتح الإسلامي حتى استطاع المسلمون خلال عشرين عاماً فقط أن يخضعوا فارس كلها وبلاد الشام ومصر وأن يُنشئوا فيها أنظمة حكم مستقرة، فإنهم ذاقوا الأمرين في جهادهم لفتح بلاد المغرب واحتاج الأمر لأكثر من سبعين عاماً لكي يدخل البربر في دين الله ولكي تستقر للإسلام دولة في المغرب الكبير وذلك بسبب الطبيعة العنيفة على الاحتواء والانضواء التي يتميز بها الشعب البربري.

ذلك أن الخطأ الأكبر الذي ارتكبه الفاتحون الأولون للمغرب هو تعاملهم مع البربر على أنهم عرب فاتحون، وربما كان ذلك راجعاً لبعض التيه الذي يراود المنتصر مع تداخل رواسب جاهلية متبقية في النفوس تعلي من شأن الانتباهات العرقية والقبلية، وهنا تجري سنة الله سبحانه وتعالى التي لا تتبدل ولا تحايي أحداً من البشر ولو كان نبي الله معهم ﴿لَمَّا نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ (١) فلم يتصر المسلمون يوماً - ولن يتصروا - بكثرة عدد ولا بقوة سلاح ولا بمنعة حصون ولا بفضل انتهاء إلى عدنان أو قحطان ولكن انتصارهم يكون - فقط - بالله حين تكون غايتهم - فقط - هي الله وجهادهم - فقط - في سبيل الله، لذا فإنهم حين تعاملوا مع البربر على أنهم عرب انتفض الأمازيغي الحر

النبيل ليصدهم ويلحق بهم الهزائم المنكرة، وما زالت بلاد المغرب تعاني حتى يومنا هذا من الثورات البربرية والحركات الانفصالية الأمازيغية التي تقف السلطات حيالها مكتوفة الأيدي تحاول حلها إما بالقهر أو بمسكنات مؤقتة لا يلبث مفعولها أن ينتهي لتأجج الثورة من جديد.

أما القائد العظيم موسى بن نصير الذي ولّاه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على إفريقيا عام ٨٦ هـ الموافق ٧٠٥ م فقد أدرك أن إخماد ثورة البربر واستقرار المغرب الكبير لن يتحقق بغير تعليمهم قواعد الإسلام وبغير التطبيق الدقيق والواعي لمبادئ المواخاة الإسلامية التي وضع رسول الله ﷺ ركيزتها الأولى في دولة المدينة والتي تجعل التقوى هي الفاصل في تفاضل الأشخاص دون نظر لانتباهاتهم العرقية، وهكذا أكمل موسى بن نصير ما بدأه عقبة بن نافع من نشر الإسلام في ربوع المغرب بينما تجلّت حنكته السياسية المستندة إلى ركيزة إسلامية متينة في تولية القائد البربري طارق بن زياد على طنجة وجعله أميراً على الجيش الإسلامي في المغرب الأقصى.

كان طارق بن زياد قائداً حريصاً عظيماً ومسلماً ورعاً تقياً ينتمي إلى قبيلة نفاوة إحدى قبائل البر ومعلمها في جنوب تونس الآن، وكان قوي البنية طويلاً أبيض البشرة أشقر الشعر أزرق العينين - على العكس تماماً مما يبدو في الدراما التاريخية - وقد أثبت الواقع حسن اختيار موسى بن نصير له فانطلق فاتحاً مدينة سبتة المنيعة ليحبر منها إلى الأندلس.

وهنا يثور السؤال عن الأسباب التي حملت الفاتحين على الاتجاه شمالاً إلى الأندلس بدلاً من الاتجاه جنوباً في اليابسة حيث كان عليهم أن يخوضوا البحر وهو أمر خيف بالنسبة لسكان الصحراء، وعن أهمية الأندلس بالنسبة للدولة الإسلامية حتى تنجس إلى فتحها وما كادت توطد دعائم استقرارها في المغرب، وهل كانت الأندلس وقتها بلاد العلم والحضارة والتمدن والقصور السامقة والحداثق الوارفة والمدن الحاضنة لكل تلك الصور الرائعة التي تداعي إلى أذهاننا اليوم بمجرد أن نسمع بهذا الاسم؟

الأخر لا يتأتى بغير تراكم حضاري لشعوب ولجتمعات حرلت الاستقرار منذ قديم الأزل ونخصمت لأنظمة تضع حدودًا فاصلة ما بين حرية الفرد واستقرار الجماعة.

وما نحن نعود إلى سياقتنا، قدعونا نشير اختصارًا إلى الأجواء الأوروبية في عصر استقرار الدولة الإسلامية في المغرب وبداية التفكير في فتح الأندلس:

فأما في الشمال حيث فنلندا والدول الإسكندنافية^(١) - الدنمارك والسويد والنرويج - لشعوب همجية لا تعرف حضارة ولا دينًا ولا حتى لغة فبعضها يتحدث بلغة جرمانية والغالبية تفاهم بالإشارة أو بإصدار أصوات أو كلمات تنطق ولا تكتب وهو ما جعل المبشرين المسيحيين يتوقفون خوفًا وازدراء عند حدود تلك المنطقة التي لم تدخل في المسيحية إلا بعد قرون طويلة من اعتناق أوروبا لها وذلك إبان الحروب الصليبية مع الشرق الإسلامي حيث تم الاستعانة بهم في البداية كمجنود مرتزقة ثم رأى البابا دعوتهم للمسيحية ليكونوا أكثر إخلاصًا للكنيسة في حربها «المقدسة» وأقل نفقة أيضًا!

وأما في شرق أوروبا فالإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية التي وعد رسول الله المسلمين أن تفتح لهم وقال ﷺ: «تفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»^(٢) وقد كانت من المنعة ما جعل جيوش المسلمين تعجز عنها طويلًا بدءًا من المحاولة الأولى عام ٤٤ هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان حتى دخلها السلطان العثماني محمد الفاتح بعد ثمانية قرون كاملة وذلك في عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٤٥٣ م، وما فتحها إلا يقين المؤمنين الراسخ بتحقيق وعد الله سبحانه وتعالى لهم.

بينما نجد في الغرب الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما وهي تعيش في ظلمات العصور الوسطى حيث الجهل والشعوذة ومحاربة العلم والعقل والتقاتل على السلطة والمال بين رجال الكنيسة والملوك وأمراء الإقطاع بينما تزرع الشعوب المغلوبة

(١) يتكون الشعب الفنلندي من أصول إثنية ولغوية مختلفة تمامًا عن الشعوب الإسكندنافية؛ لذا فإن اعتبار فنلندا من الدول الإسكندنافية يرجع لاعتبارات سياسية فرضت ذلك في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

(٢) أخرجه أحد في مستند، والحاكم في المستدرك، عن بشر القنوي، وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

بلاد الهمج

في القرن الخامس الميلادي اجتاحت أوروبا قادمة من الشمال الإسكندنافي قبائل بدائية همجية أطلق عليها قبائل الفاندال (Vandals) نسبة إلى مدينة «فاندل» السويدية أو إلى مدينة «فاندسيسل» الدنماركية، فاستباححت كل شيء وأخذت تقتل وتحرق وتسرقت وتدمر الآثار الحضارية والثقافية للإمبراطورية الرومانية، وكان من أبرز ما استولوا عليه وأتلفوه الغنائم والكنوز النادرة هيكل سليمان التي جلبها الأباطرة من اورشليم إلى روما، ثم انساحوا في البلاد ينشرون في طريقهم الرعب والخراب حتى عبروا جبال البيرنيه متجهين جنوبًا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فقاتلوا سكانها الأصليين وقتلوا ملكهم وأسسوا بها مملكة سُميت «فاندالسيا» أي بلاد الفاندال، ولما كان العرب ينطقون بحرف «V» اللاتيني «و» بالعربية فقد حرفوا الاسم إلى «واندالسيا» أي بلاد الوندال، ثم تطورت إلى «الأندلس» بالعربية، أو أندلوسيا (Andalusia) باللغات الأوروبية، وهو الاسم الذي ما زال يُطلق حتى اليوم على منطقة جنوب إسبانيا.

وما يستوقفنا هنا أن اللفظة المنسوبة إلى السكان الأصليين للشعوب الإسكندنافية ما زالت تشير في اللغات الأوروبية الحديثة إلى الهمجية أو التخريب بلا مبرر، فهي بالإنجليزية «Vandalism»، وبالفرنسية «Vandalisme»، وبالإسبانية والإيطالية «Vandalismo»، أما الهمج المخربون فيطلق عليهم «Vandals»، ولعل هذا يقيدنا في التعرف على حقيقة تلك النوعية من حرية التعبير وحرية الاعتقاد التي يتمتعون بها الآن في الشمال الأوروبي ولو كانت على حساب مشاعر الآخرين ومقدساتهم، فاحترام

عن أمرها تحت يبر استداده مطلق يبارس عليهم باسم الرب، وفقر مدقع، وحراقات
تلس مسوح الدين وحروب هم - فقط - وقودها يسا يعم بعانها الكهنة والملوك

نحن الآن عند نهايات القرن الأول الهجري وتحديدًا عام ٩٢ هـ وبدايات القرن
الثامن الميلادي عام ٧١١ م وقد حضعت شبه الجزيرة الأيبيرية «الأندلس» - إسبانيا
والبرتغال الآن - تمامًا لحكم القوط بعد أن وحد «ثيودريك العظيم» القوط الشرقيين
والعربيين في مملكة واحدة وتحالف مع العاندال بعد أن تزوج إحدى بناتهم، وقد أثر هذا
التحالف في الأخيرين فجعلهم أكثر تحضرًا كما تسبب في تعرفهم على الديانة المسيحية على
العكس من أصولهم في الشمال، وبعيدًا عن التفاصيل التاريخية الكثيرة نكتفي بالإشارة
إلى أن العاندال (أو الوندال كما سماهم العرب) اعتنقوا المذهب الآرياني المخالف
للمذهب الكاثوليكي مذهب الإمبراطورية الرومانية، وكذا فعل ملوك القوط الذين
أقاموا مملكة لهم في الأندلس استمرت حتى الفتح الإسلامي، وقد ساد المذهب الآرياني
في شبه الجزيرة الأيبيرية زمانًا طويلًا حتى تعاقب اصطهاد الكاثوليك للإيرانيين بعدما
اعترفت الكنيسة الكاثوليكية القصة الثام على هذا المذهب فكانت المحجيات الإرهائية
والمجذرات الوحشية على غرار تلك التي حدثت من قبل في مصر وشمال إفريقيا مما ترتب
عليه تحول ملوك القوط بعد وفاة «ليوبيجيلد» آخر ملك قوطي إرياني إلى الكاثوليكية
يسا أحصى الشعب تمسكه بملوكه الأصلي وظل الخوف والحسرة في العوم من نحو قرن
من الزمان وذلك في انتظار المخلص

ومما يستوقف النظر هنا ويؤسف له في الوقت ذاته أن أكثر المعاصرين من المؤرخين
العرب يتجاهلون تمامًا - ربما اتباعًا منهم لمهج المؤرخين الغربيين - حقيقة العقيدة الدينية
التي كان قوط الأندلس يعتنقونها قل الفتح الإسلامي، وهو ما يجعلونه أيضًا بالسبب
لقبط مصر مكتفين بأن يطلقوا على الجميع لفظة «نصارى» المجملية دون تفصيل، رغم
أن الوقوف على الحالة الدينية للشعوب الأصلية للبلاد المفتوحة يعيدنا كثيرًا في معرفة
الوجه الحقيقي لسياسة الفتح الإسلامي خاصة في البلاد التي كانت تعتنق المسيحية، لذا
هنا أستمحىكم عذرًا في إيقاف تسلسل الأحداث مؤقتًا يسا طارق بن زياد يأخذ أهله
للمعبر إلى الأندلس؛ وذلك لعود بالمرن إلى الورا إلى ما قبل العثة المحمدية بقرون
وبالمكان إلى مصر القديمة

الاقباط الموحدون

بعد أن بنى الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم من كبد اليهود
ورفعه إليه اطلق حواريه في البلاد يشرون بالملكوت ويشرون دين الحق الذي جاء
به المسيح كما جاءت به رسل الله أجمعين ويخرجون الناس من ظلمات الوثنية والشرك
إلى نور التوحيد الخالص لرب واحد خالق الكون والملكوت بلا شريك له في الخلق أو
الأمر

ولقد كانت لمصر مكانة هامة في المسيحية وإليها فرمت العائلة المقدسة المكونة من مريم
العذراء وطفلها الرضيع يسوع ويوسف النجار هربًا من هيرودس ملك اليهود الذي
أراد لنته حين أخبره بحوس المشرق القادمون إلى أورشليم أنهم رأوا نجم صبي وُلد فيها
وأله سوف يصح ملكًا لليهود، وقد حمت تلك الرحلة الميمونة البركة إلى أرض مصر
فبعد ذلك بسنوات وبعد رفع المسيح عليه السلام وصلها واحد من السابقين الأولين
من المؤمنين برسالة المسيح وأحد حواريه المخلصين هو يوحنا مرقس الذي أسس أول
كنيسة بالإسكندرية عام ٦٢ م وراح يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد لا شريك له
فأمر عبه الوثنيون وقيده وعذبوه حتى قضى شهيدًا

واسمر الشرك والإيمان يتصارعان على أرض مصر التي كانت في ذلك الوقت
هاضمة للإمبراطورية الرومانية الوثنية وكلما ازداد انتشار المسيحية بين القبط - اسم
بطن مد القدم على سكان مصر - كلما ازداد حقد قيصرية الرومان وولائهم فأخذوا
يهضطرون المؤمنين ويسومونهم سوء العذاب، لكن قسوة الاضطهاد وشاعة التعذيب
واستهاد ألوف المؤمنين والتمثيل بجثثهم ما رادهم إلا إيمانًا وتمسكًا بدينهم، وصدق

رسول الله ﷺ إذ يقول «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحمر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمشر فيوضع على رأسه فيجمل بصعين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون خمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دبه»^(١)، وتلك سنة الله العادة في خلقه التي لا تتغير ولا تبدل وليميز الله الخبيث من الطيب، فاستمر الاصطهاد نحو قرين ونصف من الرمان تضاعف حلالها انتشار المسيحية وعرفت البلاد العديد من الشهداء الذين أصبحوا رموزاً يتدى بهم حيث تحولوا إلى أمثلة للتصحية في سبيل العقيدة تحت الآخرين على التقدم للسير على نهجهم، ومن أبرز شهداء تلك الفترة القديسة كاترين «سنت كاترين» والقديس تادرس والدبا بطرس وغيرهم، وقد بلغت شاعة القتل أن كانت جثث الشهداء يُمثل بها ثم تُحمل على عربات وتُلقي أكواماً متراكمة في سبيل الليل.

وكان من نتائج ذلك الاصطهاد الذي فاق كل وصف أن لحا مسيحيو مصر الأوائل؛ الأقباط الموحدون، إلى الصحراء هرباً من بير القهر والتعذيب فأقاموا كهوفاً ومعابر يتعبدون فيها ويتبتلون إلى الله ليسحوا بأرواحهم من شرور الحياة فكانت تلك هي السنة الأولى لنظام الرهبة في المسيحية، وعرفت سيناء والصحراء العربية سحفاً مدائياً من أدبرة الرهبان كانت السبب المباشر في دخول بعض بربر شمال إفريقيا في المسيحية

وقد أطلق على تلك الفترة المبكرة من التاريخ القبطي اسم «عصر الشهداء الأول» تمييزاً له عن «عصر الشهداء الثاني» الذي سيمر به المصريون بعد فترة قصيرة اطمأنوا فيها واستراحوا وتمتعوا بممارسة شعائهم في جو من التسامح الديني بعد أن أصدر الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول في عام ٣١٣م قانوناً أطلق عليه «مرسوم ميلانو» نص فيه على إلغاء جميع العقوبات التي فرضها الأباطرة السابقون على من يعتنق المسيحية في ربوع الإمبراطورية، وفي هذا السياق قام الإمبراطور بنقل عاصمة إمبراطوريته من روما حيث معقل الوثنية في غرب أوروبا إلى مدينة في الشرق - حيث يكثر انتشار المسيحيين - سبها روما الجديدة ثم أطلق عليها بعد وفاته «القسطنطينية» تيمناً باسمه لتعتبر أول مدينة مسيحية في العالم تصمم بيوت الله ويُسمع فيها بناء المعابد الوثنية عملاً

(١) رواء البخاري عن خباب بن الأرت.

من ذلك التاريخ، وقد حلت بها البركة بدالك التكريم حتى أصبحت بعد قرون طويلة «إستانبول» عاصمة الخلافة الإسلامية وإحدى مارات التوحيد التي تستقطب مشاعر المؤمنين في كل مكان.

إلا أن الأقباط ما كادوا يركون إلى الراحة ويعمون بالتسامح حتى استلوا عاصمة جديدة بدأت بواكيرها أثناء حكم قسطنطين ذاته، فتحمساً من الإمبراطور للديانة المسيحية التي اعتنقها أراد لها أن تنتشر في ربوع الإمبراطورية الرومانية فوقف له الوثنيون بالمرصاد، وكانت لرجال الدين في المعابد الوثنية مكانة هائلة في نفوس الناس ولولا روحية لم يتمكن الإمبراطور من ردها أو الانتفاص منها فجاء إلى مذاهنتهم وهاربه بعض رجال الدين المسيحي الذين استندوا إلى ما جاء في الأثر وبالأخص ما ذكره بولس الرسول^(١) «استعدت نفسي للجميع لأريح الأكثرين فصرت لليهود كيهودي لأريح اليهود، وللذين تحت ناموس كأني تحت ناموس لأريح الذين تحت ناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أي لست بلا ناموس». وهذا أنا الفعل لأجل الإنجيل»، ومن هنا بدأ رجال الدين المسيحيون يذاهبون الوثنيين ليغروهم بالدخول في الدين الجديد وقد كانت آلهة الرومان الوثنية ثلاثة - حلاًفاً للعدد الواسع في الآلهة الموجود عند اليونان - وفي الوثنية الفرعونية التي كان كثير من القبط من الروا مغمسكين بها كان الثلاث الإلهي الفرعوني: أوسيري، وهور، وإيس، ومن هنا وهناك تولدت فلسفة الأقاليم الثلاثة للإله الواحد (الأب والابن والروح القدس) التي يسرت لفهم الوثنيين عن عقائدهم السابقة التي تمسكوا بها لقرون طويلة ودخلهم في المسيحية، وحل هذه الفلسفة كان تأسيس الكنيسة الكاثوليكية في الغرب.

إلا أن أقباط مصر المؤمنين الذين تحملوا الاضطهاد والتعذيب والقتل والتشريد طوال قرنين ونصف من الرمان من أجل عقيدة التوحيد الخالص التي بشر بها المسيح ودعاهم إليها مرقس البشير «مار مرقس» رفضوا هذا الخلط بينها وبين العقائد الوثنية القديمة فكان ذلك الرقص نقطة معصية في التاريخ المسيحي عامة وفي تاريخ مصر خاصة.

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ص ٩.

القائضون على الجمر

رفض الأقباط المؤخدون محاولات بعض رجال الدين مDAHنة الوثنيين لإعرائهم بالدحون في المسيحية استجابة لرغبة الإمبراطور قسطنطين الذي أراد نشر الديانة الجديدة في ربوع الإمبراطورية الرومانية الوثنية، فتصدوا بقوة لمحاولات الخلط بين عقيدة التوحيد التي جاء بها المسيح عليه السلام وأسياء الله من قبله وبين العقائد الوثنية المتأصلة في عبوس الرومان والمصريين القدماء، وقد نرعم تلك المقاومة قس مسيحي كنيسة الإسكندرية يُدعى «آريوس».

والمعارقة أن آريوس هذا كان شأنًا من بربر القبروان الذين اعتنقوا المسيحية على يد رهبان مصر ثم وعد إلى الإسكندرية حيث تلقى العلم في مدرستها اللاهوتية، وكان تقيًا صالحًا ذكيًا فصيحًا مرسمه البابا بطرس شامًا ثم فسا وواعظًا بالكنيسة، فلما بدأت محاولة خلط التوحيد المسيحي بمكرة الثلاث وامتدت من روما إلى مصر تصدى لها بحسم، وقد كان له من التقوى والورع والعلم ما يضاف إلى طبيعته البربرية الآلية العصبية على الاحتواء والخضوع ما ساعده على الوقوف بقوة وصلابة أمام كل محاولة لتبديل العقيدة، وقد وقف الشعب القبطي المؤمس وراءه واحترده بطريقًا للكنيسة إلا أن بعض رجال الدين قاموا بتنصيب أنكسندروس بطريقًا ثم أوغزوا إلى الإمبراطور بأن آريوس حرج عن طاعته وطالبوا تحريده من الكهوت فما كان من قسطنطين الأول إلا أن دعا كافة رجال الدين في الإمبراطورية إلى الاجتماع في مدينة تقع بمسطقة الأنصول تسمى «نيقية» وذلك في عام ٣٢٥م لمناقشة الأمر، وبعد مجمع نيقية أو المجمع المسكوني الأول علامة فاصلة في التاريخ المسيحي بأكمله حيث تغلبت فيه المصالح

السياسية المتمثلة في رغبة الإمبراطور في حماية وحدة الإمبراطورية ومداهنته بالتالي للرافضين للإيمان المسيحي وحرص رجال الدين على المحافظة على سلطتهم ومكانتهم وخشيتهم من العودة إلى معاناة عصور الاضطهاد، تغلب ذلك كله على عقيدة التوحيد الخالصة التي نزل بها المسيح ابن مريم فانهى مجمع نيقية إلى الحكم على آريوس باهرطقة وحرمانه ونفيه من مصر وحرق كتبه وإعدام من يستر على هذه الكتب، كما تم وضع قانون جديد للإيمان المسيحي يطبق على جميع الكنائس في الشرق والغرب ونص على أن: «يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل فلأجلنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ونأنس وصُلب عا».

وما زالت أصداء صوت آريوس تتردد في جيبات مجمع نيقية وهو بحاجة لمخالفة آيات بيئات من الإنجيل حيث يقول المسيح عن معجراته: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا لآي لا أطلب مشييتي بل مشيئة الذي أرسلني»^(١)، كما يجيب تلاميذه عن سؤالهم عن ساعة الديونة: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد ولا ملائكة السموات إلا الآب وحده»^(٢)، ويساجي ربه في صلاته قائلاً: «أبت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»^(٣)، ويؤكد أن ما ينطق به ليس إلا رسالة أرسله بها الله إليهم. «الكلام الذي تسمعون ليس لي بل للآب الذي أرسلني»^(٤)، وكثير سواها من الآيات التي استند إليها آريوس ليقرر وحدانية الرب تقدمت أسماؤه وأن المسيح عليه السلام هو هيده ورسوله.

غير أن صيحاته صاعت هاء أمام سطوة المصالح السياسية والأطباع الديونية فتم نفيه من مصر ثم تأمر المتآمرون لقتله، إلا أن أتباعه من القبط المؤمنين ظلوا على تمسكهم بعقيدتهم قائمين على حمار الحق لا يصبرهم من حدهم ولا يشبههم عن طريقهم

(١) يوحنا ٥: ٣٠

(٢) متى ٢٤: ٣٦

(٣) يوحنا ١٧: ٣

(٤) يوحنا ١٤: ٢٤

القيوم من حاد صه، وهكذا بدأ في مصر «عصر الشهاداء الثاني» وكان على غرار العصر الأول بل أشد بأساً إذ أوقف إثناسيوس بطريرك الإسكندرية المعين من قبل أباطرة الروم والذي كان رئيساً للشمامسة في مجمع نيقية ما تبقى من حياته لاضطهاد القريين بالوحداية وتعديدهم وتقتيلهم، هجر منهم من فر إلى الشرق والغرب فإزداد انتشار الفكر الأريوسي أو ما أطلق عليه المذهب الأريائي سواء في مصر أو خارجها، وكان من أس هذا الفكر مسيحيو شمال إفريقيا وقوط الأندلس إضافة لاتباع مارمرقس من أقباط مصر المسيحيين.

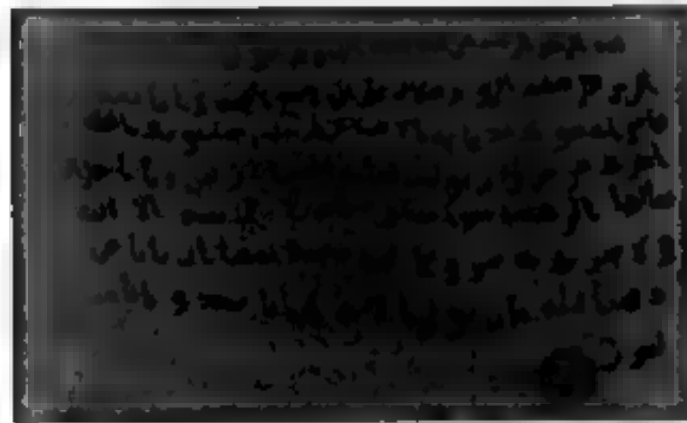
وفي عام ٤٢٨م تمكنت الكنيسة الكاثوليكية من استصدار قرار إمبراطوري يقضي باستئصال المذهب الأريائي من كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية بكل الوسائل، وبدأت حملات القتل والترويع وحرق الأناجيل وكتب العلم وتهديم الكنائس والتماثيل بالحث وغيرها من الممارسات الدموية الشهيرة للكنيسة العربية التي تذكرنا بمعناكم التمهيش التي ستعقدها هذه الكنيسة ذاتها بعد قرون لأهل الأندلس المسلمين عقب سقوطها والتي ما زال اسمها ماثلاً في صفحات التاريخ كرمز حي على ما تحويه النفس البشرية إن صلت الطريق على قسوة وظلم وحقد ودموية لا مثيل لها عند أشد الوحوش شراسة.

ويبقى أقباط مصر المؤمنون وقوط الأندلس وغيرهم من الموحدين رغم العذاب والاضطهاد قايضين بقوة وإصرار على رمام قناعة التوحيد الماصية في طريقها عبر الرمان في انتظار «المعري» الذي بشر المسيح تلاميذه بأن الله سيرسله ليُعلم الناس كل شيء «ويذكركم بكل ما قلته لكم»، ويبسط الوحي على محمد كما هط من قبل على عيسى، ويلقي محمد وأصحابه ما لاقاه عيسى وأصحابه من عت وتكذيب، ويتنزل القرآن الكريم بحمر سبه بالحق عن عباده الموحدين «وَلْتَجِدَكَ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَكْفُرُ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَنِيسِينَ وَرُفَعَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَوْبَعُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا مَا كُنَّا مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)، إنهم أنواع

المسيح، أصحاب آريس وغيره من قسيسي التوحيد ورهبانه، القبط المؤمنون والأريان المصطهلون في كل مكان

وقد أحبر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأمر هؤلاء الموحدين المتمسكين بدينهم الحق لذا ذكرهم ﷺ في رسالته التي أرسلها إلى هرقل إمبراطور الروم وهو ما لم ينسه له المؤرخون والمفسرون المسلمون رغم أن تلك الرسالة ما زالت محفوظة حتى اليوم متحف طوب كاهي باستنبول ومهورة بالخاتم النبوي الشريف، فإذا تصممت الرسالة السوية بشأن الأريسيين؟

ونتيجة للاضطهاد الكاثوليكي للأريانية في أوروبا فقد كاد المذهب أن يذثر إلا من شبه الجزيرة الأيبيرية «الأندلس»، وكما أسلفنا فقد تحول ملوك القوط بعد ليومجيلد إلى الكاثوليكية دين الإمبراطورية الرومانية طمعًا في استرعاء الأباطرة ليقوهم على عروشهم، بينما تمسك عامة القوط الأندلسيين - كقط مصر - بعقيدتهم وتحملوا في سبيل ذلك العت والاضطهاد من حكامهم فضلًا عما كانت تمنيه الشعوب الأوروبية عامة خلال تلك الفترة من فقر وحرمان وفقر تحت سلطان حكام جائرين، ولعل هذا الكشف عن حقيقة العقيدة الدينية لقوط الأندلس يعبر لنا السبب الحقيقي الذي دفع الفاتحين المسلمين للإبحار نحوها بدلًا من الاتجاه جويًا في اليابسة لشر الإسلام بين قبائل السودان، وعندما يذكر السودان هنا فإسلا لا تعني بالطبع ذلك الواقع جنوب مصر والذي كان قد فتح بالفعل قبل سنوات طويلة، وإنما تعني الدول الإفريقية الواقعة جنوب المغرب الكبير كالسنغال والنيجر ومالي وغيرها.



٤ - رسالة النبي ﷺ إلى هرقل

فعندما وصل الفاتحون المسلمون إلى المغرب قتل أكثر من سبعين عامًا أثر عجزهم ذلك القدر الهائل من الذهب الذي وجدوه بحورة البربر، وعندما سألوهم «من أين لكم هذا؟» أجابوا بأن قدموا لهم الملح الذي يستخرجونه من مناجم الصحراء قائلين: «هذا بذاك»، فلقد كان البربر في تجواهرهم شمالًا وجنوبًا يتجرون مع السودان الذي يتوافر فيه تهر الذهب بلا حساب حتى ليوجد في تناول الجميع كما تكثر فيه مناجم الياقوت الحيد فكسروا بيعهم الملح الصحري مقابل تلك المعادن الثمينة ومقابل

وأشرقت الأنوار

في نهاية العام السادس للهجرة الموافق ٦٢٧ ميلاد السيد المسيح وعقب عودة رسول الله ﷺ من الحديبية أرسل رسله إلى ملوك الأرض وأمراتها يدعوهم إلى الإسلام، وقد تضمنت رسالته إلى إمبراطور الروم ما يلي: «من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم جميع الأريسيين ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى صُكُوتٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْإِسْلَامُ وَلَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ شَيْءٍ وَلَا يَسْجُدُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَزْوَاجًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَغُورُوا أَنشَهُدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» (١)

والطريف أن المتأخرين من المصريين وقفوا عاجزين أمام كلمة «أريسيين» التي وردت في الرسالة لعدم معرفتهم بالمذاهب المسيحية ففسرها البعض بالخدم والصعفاء، والبعض بالزراع والأجراء، واكتفى آخرون بأن ذكروا في تفسيرهم بأن الأريسيين هم أتباع هرقل أما رسول الله فقد كان يعلم بما علمه ربه أن الأريسيين هم أتباع أريوس الذين ظفوا قابضين على جدر الحق في انتظار بعثته ﷺ، وما كاد فجر يوم ١٨ ربيع الآخر عام ٢٠ هـ الموافق ١٦ إبريل عام ٦٤١ م يشرق على أرض مصر حتى كان الصحابي الحليل عمرو بن العاص قد نجح في إسقاط النظم السياسي التابع للإمبراطورية الرومانية، والذي كان يضطهد أقباط مصر ويسومهم سوء العذاب، وهكذا دخل كثير من القبط في دين الله تصديقًا بما بشرهم به المسيح عليه السلام ليبدأ على أرض الكنيسة عهد جديد ينتهي فيه اضطهاد الروم وأتباعهم ويسم أهلها جميعًا بتسامح ديني ليس له مثيل

(١) سورة آل عمران، آية ٦٤

الذهب الأسود لذلك العصر وهم الزنوج الذين كانوا يمثلون عصب القوى العاملة في العالم القديم شرقه وغربه، وقد كان البربر يستخدمونهم في استتراج ملح الماسح ويبيعونهم للأوروبيين الوافدين إلى مدن المغرب التي حوت آنذاك أكبر الأسواق العالمية لبيع العبيد.

عرف المسلمون إداً ومد البداية ما يجويه السودان من ثروات وميرة تسيطر عليها قلة من قبائل وثية بدائية تجمعهم بالربر علاقات قديمة سلمية وحرية، وفصلاً عن ذلك فإن المسير إلى الجنوب عبر اليابسة هو بلا شئ أيسر على جود الجيش الإسلامي - سواء من العرب أو البربر - من خصوص البحر الذي يمثل لقائل الصحراء حاجاً غريباً بما جعل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يتردد في الموافقة على طلب موسى بن نصير بالإذن له في فتح الأندلس قائلاً: «لا تُعزّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»، لكن ابن نصير تمكن من إقناعه بمحدودية المساحة البحرية بين المغرب والأندلس

وسأكتفي في الإجابة على تساؤلات مطفية حول أسباب أولوية الأندلس (بلاد المصيح وما وراء البحار) عن السودان الصحراء المغربية (بلاد الذهب والعبيد وامتداد اليابسة) في سياسة الفتح الإسلامي رغم سهولة الأخيرة وإعرائها بالمقارنة بالأولى بإجابة الصحابي ريمي بن عامر حين أرسله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما إلى رستم قائد المرس للتفاوض معه قبل معركة القادسية، إذ سأله الأخير مستهزئاً به ومحتقراً لهداوته: «ما الذي جاء بكم إلى هنا؟»، فأجابه السفير المسلم بثقة راسحة: «لقد ابتعثنا الله لمحرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدب والأخرة» فليست الدنيا هي هدف الفتح الإسلامي، لكنه شيء آخر لا يدركه (إلا من تجاوزت تطلعاتهم ما فوق طين الأرض).

وهكذا شاء رب العباد سبحانه أن تشرق أنوار التوحيد على قوط الأندلس كما أشرقت قبل أكثر من نصف قرن على قبط مصر لتحرهم من ظلمات جور طويل، وفي شهر رمضان المبارك من عام ٩٢ هـ كانت معركة وادي لكة بين الفئة القليلة المؤمنة من جيش طارق بن زياد وبين الكثرة الضالة المصطعدة من جيش الديكتاتور روديكو، وهنا نجد أنفسنا في حاجة إلى وقفة مع تعبير «الفتح العربي للأندلس» الذي يستلحقه المؤرخون، والذي يعد بحق افتتاحاً منهم على الحق.

الفتح الإسلامي

يمرّف خبراء العلاقات الدولية المعاصرون الحرب بأنها حالة صراع مسلح بين دولتين أو أكثر، وأنها ظاهرة مستمرة وضرورية ولازمة في تاريخ البشرية، لذا فإنها تتطور وتنمو معها ليس فقط من ناحية تكنولوجيا الأسلحة وإنما أيضاً من ناحية البواعث والفلسفات التي تدفع إلى القتال بين بني البشر، ومن ناحية الصواب القسرية التي تحكم العلاقات بين المتحاربين وبينهم وبين المحايدين بما في ذلك معاملة الأسرى وغيرها من الأحكام التي تنظمها المعاهدات الدولية التي بدت ذروة رقيها في القرن العشرين بإبرام المعاهدات الرئيسية الحاكمة لأوضاع الحرب وأهمها مجموعة اتفاقيات لاهاي بخصوص الحرب ومجموعة اتفاقيات جنيف لمعاملة أسرى الحرب وحماية المدنيين وغيرها.

غير أن ديناً قام على العدل والرحمة وعلى المساواة بين بني البشر جميعاً أسس قبل هذه المعاهدات بقرون طويلة نظاماً تشرياً إليه أعناق الباحثين المصممين فلا تطوله فيكتفون بكتابات معبرة عن انبهار حقيقي بتلك الدرى الشائعة التي وصلتها أحكام الحرب في الإسلام في وقت كانت الدول تتاحم بعضها بعضاً للاستيلاء على ثرواتها ولتدمير حصاراتها وللاستعباد أهلها ولعز من مطلق القوة ومدلة الفهر على المملوب دون صواب إنسانية، وهو الأمر الذي ما زالت تصفعنا به حتى اليوم صور القتل من الساء والأطفال والمشوهين من المدنيين رغم كم المعاهدات التي لا تنفذ إلا بمعيار مردوج ذي صبعة انتقائية غير منكورة، بينما التزم العاتقون المسلمون صواب الحرب

في الإسلام الترتاباً دقيقاً إلى حد الإعجاز، ولا عرو فهم جود الله المجاهدون ليس من أجل دنيا يصيبونها ولكن لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

لن أسترسل في تفاصيل يعرفها كل قارئ ويقر بها كل متصف من التزام بالمعهد وكف عن الصغفء والمرص، وحماية دور العبادة عبر الإسلامية، وإحسان إلى الأسرى وإبلاغهم مأمهم، وتحريم قاطع للإفساد في الأرض أو حرق للزرع والعلال، أو الاعتداء على الآثار الحضارية للدول المحاربة، فأين اتفاقيات جنيف من وعد الرب تبارك اسمه عباده بالجنة لأنهم ﴿وَيُطْعَمُونَ وَالْطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُمَا مَشِيتُمَا وَيَسْكَوْا كَأَنَّ﴾^(١)، وأين اتفاقيات لاهاي من تعليمات رسول الله ﷺ لجنوده «لا تقتلوا شبهاً فانياً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تملأوا، وأصلحوا وأحسنوا»^(٢).

لكن ما يعني التأكيد عليه أنه إذا كانت للحروب بين الأمم بواعث متنوعة فللحرب في الإسلام باعث واحد لا يتغير، كامن في طبيعة هذا الدين كإعلان عالمي لتحرير البشر، فهي ليست أداة لحسم نزاع، ومن باب أولى لا يسعى بأي حال أن تكون وسيلة لإشباع روح السيطرة أو لكسب المغانم، وإياها هي الآلية الأخيرة التي تضطر إليها الدولة الإسلامية إن أعيثها الخيل للإبلاغ الدعوة الإسلامية لشعوب الأرض لتحريرهم من عبادة العباد وتعبيدهم لرب العباد وحده، ولأن السلطة السياسية التي تستند الناس عادة ما تقف بكل قوتها في وجه دعاة الله لتحويل بينهم وبين إبلاغ هذا الحق الذي يحرر الناس من سلطانها العاشم، فكان لا بد من وجود قوة موازية تعمل على إراحة هذه السلطة لتحرر إرادة الناس حتى يمكنهم أن يحتدوا دونما أدنى ضغط بين الدخاق بقافلة التوحيد وبين البقاء على دين الآباء والأجداد، دون هم اختاروا السجاة أصبحوا جراً، لا يتجرأ من القافلة المباركة؛ لهم حقوقها وعليهم التزاماتها، وإن اختاروا الثانية كان لهم ما أرادوا والترم الصالحون بحماية اختيارهم وبكفالة حريتهم في عبادة ما يريدون، بل وأصبح النظام السياسي الإسلامي ملتزماً بأن يقاتل دون معابدهم وكنائسهم وهراسهم

(١) سورة الإنسان، آية ٨

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ومشي أبي داود، والترمذي، عن أنس بن مالك، وصححه السيوطي في الجامع

وضمعاتهم، وبأن يحمي أموالهم وثرواتهم، وبأن يقدم لهم من الخدمات وحرص الحياة مثل ما يقدم للمسلمين، وبألا يلزمهم بتشريعات تنظم أحوالهم الشخصية خارج إطار دينهم وبألا يفرص عليهم جبايا مالية مقابل ما يقدم لهم من خدمات إذا كانت تطوي على عادة كالكافة المقروضة على جميع المسلمين رجالاً ونساء وشيوخاً، وإنا بأحد من رجالهم اسألهم القادرين على حمل السلاح - فقط - دون النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ورجال الدين حرية مالية أقل كثيراً من قيمة الكافة مقابل إعماهم من الاسراط في جيش يقاتل تحت راية دين لا يؤمنون به

إنها الرفعة الإنسانية في ذرى مجدها...

إبه الإسلام...

لنا ما كان في سفر التاريخ الإنساني من صفحات مشرفات في معاملة الأقليات الدينية أو العرقية إلا تلك التي حطتها النظم الإسلامية إنان حملها مشاعل السور إلى شعوب مقهورة لتحررها من طغيان الجهل والظلم ولتحقق بها ومعها سادج حبة للعدل الإسلامي لم يسكرها غير حاقق كذب أو مهروم في داخله مرتعب من سطوة ثقافية وإرهاب فكري يجدها به أعداء الله الذين علوناً أثناء الليل وأطراف النهار.

ولقد انطلق طارق من رباد بجيشه من البربر الذين قال عنهم أحد قواد القوط «أحد لا أدري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء»، وقال عنهم آخر: «رهبان الذين فرسان النهار»، وهكذا رفعهم الإسلام إلى ذراه الشاعرة فأصبحوا مثلاً يحتدى به وقدموا بأفعالهم وأخلاقهم الرهبان على أنهم جنود المعركة الذي بشر به المسيح فاصم لهم القوط الذين أموا بالرسالة الخاتمة وانطلقوا يفتحون باقي مدن الأندلس، وفي رمضان الثاني من عام ٩٣ هـ لحق بهم موسى بن نصير بجيش من العرب، فلم يعض هامان حتى كان المسلمون البربر والقوط والعرب قد فتحوا شبه الجزيرة الأيبيرية كلها وجوب فرسا، ولولا رفض الوليد بن عبد الملك لانطلق موسى بن نصير فاتحاً بلاد أوروبا متوجهاً إلى القسطنطينية التي ما زالت عصية على الفتح من جهة الشرق فأراد فتحها من العرب، لكنه عاد ومعه طارق امثالاً لأمر الخليفة ناركاً أرضاً أشرفت عليها أنوار الحق وأصحت مهددة لإقامة دولة موحدة تصم أعراقاً ثلاثة مختلفة، فكيف سار بهم الحال؟

الأيام ذول

قامت دولة الإسلام في الأندلس منذ فتحها القائد البربري طارق بن زياد عام ٩٢ هـ الموافق ٧١١ م واستمرت طوال ثمانية قرون حتى سقطت آخر معاقلها وأجل مدن العالم آنذاك «غرناطة» عام ٨٩٧ هـ الموافق ١٤٩٢ م.

يقول الرب تقدست أسماؤه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (١).

وبين صبيحة القائد القوطي الذي بهرته عزة جيش الفتح الإسلامي وأبسه وتقواه «قد أناكم جيد لا أدري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء»، وبين تبيكيت عائشة الخيرة لابنها أبي عبد الله بن الأحمر وهو يكي بعد أن سلم الأسن العاريس لبلاده مفاصلها: «إني كالنساء منكأ مضاعاً لم تحفظ عليه كالرجال»، قامت حضارة عظيمة أدهلت العالم وما زالت تذهله بإبجارات كان هـ الفصل الأول في إيقاظ أوروبا من طلمات العصور الوسطى لتدخل عصر النهضة والعلم والتنوير والتقدم والمدنية.

ولقد قيل كثيراً عن تلك الحصار وما زال يقال ويكتب ما تنوء به المجلدات، ولسا هـ في مجال الحديث عن حصار الأندلس الإسلامية فذلك مجال آخر، ولكننا في رحلتنا مع البربر الذين شكلوا مكوناً أساسياً من مكونات تلك الحصار وأنشروا عليها إيماناً وسلباً نكتفي بأضواء سريعة على شهادات غريبة عن فترة ازدهارها هناك:

فلنقرأ معاً ما كتبه ستانلي لين بول في كتابه «العرب في إسبانيا» - لاحظ الخلط العربي الذي انتقل للمؤلفات العربية بين العرب والمسلمين - «لم تنعم إسبانيا طوال تاريخها بحكم رحيم عادل كما نعمت به في أيام المسلمين»، ولطالع ما سطره ول ديورانت في موسوعته «قصة الحصار» - ملعت إيرادات الأندلس في أيام عبد الرحمن الثالث ما يعوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة، ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثرًا من آثار الحكم الصالح وتقدم الزراعة ورواح التجارة - ولقد كان حكم العرب نعمة وبركة، وقد حرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع - وقد كان المسيحيون يفصلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين (لح)، أنريدون نصاً آخر: «إذا فلتطر معاً هذه الشكاية التي حطها الفاروق، وهو كاتب مسيحي من القرن التاسع الميلادي» «والأسفا على شباب المسيحيين الذين هم أبرر الناس مواهب، ليسوا على علم بأي أدب ولا لغة غير العربية فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكفيهم بفتات باهظة، وإنهم ليرتمون في كل مكان بمدح تراث العرب وإني لأراهم من الساحة الأخرى يحتجون في راية - إذا ذكرت الكتب المسيحية - بأن تلك المؤلفات غير جديرة باحترامهم»، أتذكر تلك الشكاية بشباب الجاهل لعتة المتأفف منها المتفاخر كيهلوان على أحيال صرعات الإيموز والمينالر؟! لا تتعجب فإن سطرة ثقافة الغائب على المعلوم، ولا غمرك هالأيام دول ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (١).

وقد استمرت مثل تلك الشكايات الكنيسة الكاثوليكية المرتعبة أصلاً منذ طرقت أبوابها طلائع الفتح، فكانت جرائم الإرهاب ومحاكم التفتيش وحروب الإبادة التي شنتها على مسلمي الأندلس بعد سقوطها، والتي كتب عن بشاعتها مؤلفو العرب أكثر مما كتب المسلمون أنفسهم، ثم واصل المستشرقون الموقدون من الكنيسة جهودهم - الساجحة - في تشويه التاريخ الإسلامي سواء في نظر الغربيين لنصفهم عن التعلق بالإسلام الذي انهروا به أو في نظر المهزومين نفسياً من أبنائه ومن المحسوبين عليه

ولقد كانت للمسلمين في الأندلس عبر ثمانية قرون دولة أحدث مسارات صعود

وهبوط وتمكين وانحدار حتى جاءت الخاتمة المأساوية التي ما زالت تمثل حزنًا عائرًا في قلب كل مسلم، وفي تلك الدولة كَوّن العرب والبربر والقوط الذين تحوّل أكثرهم للإسلام والمولدون نتاج التراوح بين الوافدين وأهل البلاد، كونوا كيانًا واحدًا ظل يتأرجح بين الهامسك والاختلاف لتحقيق سنة الله التي لا تحابي أحدًا من الناس ﴿وَلَا تَسْرِعُوا بِالنَّفْسِ أَنْ تَنْتَهِزُوا وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ﴾^(١)، ولقد انهار البان الحصارى العظيم حين تخلّلت ثوابت العقيدة التي تأسس عليها، ومن هذه الثوابت المساواة وعدم التعاضل بالعرق أو بالنسب: «لا فصل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى»^(٢)، وقد كان من أهم مؤشرات الضعف والتدهور ثم الانهيار أن يتعالى العرب بأسابهم وبأنهم قوم النبي ﷺ ثم يتصارعون قبليًا بين عاربة ومستعربة، أو يتماحروا البربر بأنهم طلائع جيش الفتح وأنهم قرابة طارق بن زياد، أو يعالون المولدون بكونهم الأغلبية العددية وأصحاب الأرض الأصليين، وقد حدثت بعض هذه الفتن على فترات قصيرة ومتباعدة، وكانت تنتهي سريعًا بتحكيم دقيق لهوابط العدل الإسلامية، لكن بعد أن تمسح الفرصة نلوا الأحرى لسمو الدور الصليبية التي تكوّن في الشمال العربي من الشرذمة التي فرّقت بعد معركة وادي لكة والتي لم يمررها موسى بن نصير اهتمامًا في حضم نجمه للانطلاق شرقًا عبر القارة الأوروبية مستهدفًا القسطنطينية، وقد انضم لتلك الشرذمة آخرون وصنعهم بابا روما تحت رعايته المادية والمعنوية وطلوا رابضين مترصين بالأندلس طوال القرون يقويهم ضعف المسلمين وتضعفهم قوتهم.

حتى حدثت الفتنة الكبرى التي كادت تعصف بدولة الأندلس الإسلامية وذلك بعد أقل من أربعة قرون من نشأتها، ولو لا أن قبض الله هـ سيفًا من سيوفه لنقص من عمر دولة الإسلام هناك ما يريد على أربعة قرون كاملة ولتغير وجه التاريخ الإنساني بأسره.

لقد تشابكت مجموعة من العوامل داخل النسيج البربرية العنصرية على الانضواء - والتي لم يروضها سوى تطبيق حارم وأمين لقواعد العدل والمواخاة الإسلامية - لتؤدي

إلى عبور شديد وصل إلى حد العداء والتقاتل بين العرب والبربر مهدد له بعض ولاية إفريقيا من متعصبي العرب الذين جاءوا بعد موسى بن نصير، وذلك بظلمهم لقتال البربر بما أدى إلى هجرة كثير منهم إلى الأندلس حيث تحالفوا مع بربر الأندلس ومع عرب اليمن «البلديين» ضد عرب الشام، ثم كانت الثورات البربرية وحركات الانفصال في الأندلس وما ترتب عليها من فوضى سياسية قابلتها ثورة المولدين التي عُدّت من أهم أسباب سقوط الدولة الأموية وقيام دويلات الطوائف ثم بقائها ستين عامًا حالكة السواد.

(١) سورة الأنعام، آية ٤٦

(٢) مستند الإمام أحمد من أبي يضر، ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد والبربر يتحور.



٤- صورة حديثة من الجبل لصخرة بيلابو بشمال إسبانيا

الإسلامية الموحدة إلى مجموعة من الدويلات الصغيرة بلغت اثنتين وعشرين دولة كمرابطة وسرقسطة وإشبيلية والمرية وطليطلة وغيرها من الدويلات التي قامت على أساس عرقي؛ فهذه للعرب وتلك للبربر وأخرى للمولدين من أصل إسباني وهكذا، ولكل دولة جيش مستقل وحاكم تُسمى بـلقب حلافي لا يتناسب مع حجم مملكته ولا مع قوتها، حيث أدى التقسيم والتشرد ثم التصارع على مناطق العودة إلى النتيجة المتوقعة من ضعف ونهايت إراء القوة المتصاعدة لمملكة قشتالة الموحدة في الشمال والتي ظلت ترقب لحظة الضعف التي حانتها مملكة بعار وهوان حتى أصبحت مثلاً تاريخياً مواتياً لمن يروم الاستدلال بمذلة قوم، وصاعها الأدياء شعراً ونثراً، ومن ذلك ما قاله الحسن بن رشيق

عما يزهدي في أرض أندلس سماع مُقشدر فيها ومعتصد
القباب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقد وصل التلوي هؤلاء الحكام إلى حد الاستعانة بملوك قشتالة في حروبهم ضد بعضهم البعض مما مهد لتدخل العدو وتعرفه على نقاط ضعف المسلمين ثم إملاء شروطه على

أكذوبة الريكونكستا

إثر انهزام جيش رودريكو أمام طارق بن زياد في موقعة وادي لكة هرب أحد قواده ويدعى بيلابو إلى أقصى الشمال الغربي للأندلس وحقن به بعض القواد ورجال الدين الكاثوليك فاحتسوا في معارة «كودونجا» التي سميت منذئذ «صحرة بيلابو»، وكانوا قليلي العدد فلم يتم المسلمون بأمرهم، إلا أن هذه المعارة شكلت بذرة صليبية ظلت تؤرق دولة الأندلس الإسلامية قروناً عديدة إذ تطورت حتى أصبحت دولة تقع في شمال الأندلس سميت بمملكة أشوريش التي أصبح ليون ثم توسعت مستعلة مراحل ضعف المسلمين وانقساماتهم فصمت الأراضي المتاخمة لها حتى أصبحت بهاية دولة الأمويين في الأندلس وبسبب ضعف الحكومات وتوالي الثورات والانقسامات الطائفية دولة شبيهة هـ قوتها وسيطرتها عندما تمكن فرناندو الأول من ضم مملكة ليون إلى قشتالة - وهي التحريف العربي لكلمة «Castillo» أي القلعة بالإسبانية - لتصبح دولة قوية في الشمال «دولة قشتالة» التي سترر إلى مسرح الأحداث مع انقسام الأندلس إلى دويلات

جمع نهايت عام ٤٢٢ هـ الموافق ١٠٣١م وإثر قيام الوزير أبو الحرم بن جهور بإخماد ثورة البربر في قرطبة ثم اندلاع ثورة المولدين ضد الحكم الأموي، أعلن ابن جهور إنهاء الخلافة الأموية في الأندلس لعدم وجود من يصلح للولاية وتأسيس ما أطلق عليه «حكومة الجماعة» وهو نموذج مبكر لنظام حكم الأقلية الأرستقراطية الذي استلهمته مدن إيطاليا فيما بعد إبان عصر النهضة الأوروبية، وكان ذلك الإعلان إيذاناً بدء ما سُمي في التاريخ الأندلسي بمعصر «دويلات الطوائف» إذ تفرقت الدولة

من يطلب نصرته؟ وهي الشروط التي تراوحت بين دفع إتاوة مالية والتنازل عن بعض الحصون والقلاع الإسلامية والامتناع عن التدخل إذا ما نشب قتال بين القشتاليين وإحدى الدويلات الإسلامية الأخرى، وصيغ هذا كله في معاهدات مخزية لم يلتزم



٥ - خريطة للأندلس الإسلامية توضح البؤر الصليبية في الشمال

بنودها - كالعادة - سوى المسلمين.

وعلى الجانب الآخر ظلت الكنيسة الكاثوليكية ترقب الأمر لسنوات حتى اطمأنت إلى نهات ملوك الطوائف وتصارعهم على المكتسبات المادية ومناطق النفوذ ثم سيطرة ملوك قشتالة عليهم نتيجة معاهدات الدل التي وقّعوها معهم، وفي الطلام الدامس حيكمت حيوط أكبر أكاديب التاريخ والتي لا يدانيها في الرور والتهتان غير أكذوبة الحق التاريخي لليهود في فلسطين، وما أشبه البيلة بالارحة، وهي أكذوبة لاريكونيكستا (Lareconquista) أو الاسترداد، إذ أعلن البابا إسكندر الثاني حرب الصليب المقدسة ضد مسلمي الأندلس وأصدر مرسومًا بالعرفان لكل مسيحي يشارك في القتال، وهكذا تقاطر الفرسان المقاتلون من وراء جبال البيرنيه منضمين إلى القشتاليين بقيادة ألفونسو السادس تدفعهم صيحات الفانيكان المؤلّبه وقدرته العاتقة على تريف التاريخ والادعاء

بأن المسلمين سلبوا الأندلس من حورة الفانيكان زها من كون أكثر أهل الأندلس في ذلك الوقت هم أحماد القوط الذين دخلوا في دين الله مع الفتح الإسلامي بعدما عابوا طويلاً من الاصطهاد الديني لاختلاف مذهبهم عن مذهب الكنيسة كما بيّنا سابقاً

وهكذا اتسار مسلمو الأندلس فسلوا ودهمت ريجهم في حين تجمع الفرسان المقاتلون تحت راية الصليب، وفي يوم أسود حالك السواد؛ يوم الأحد ٢٥ مايو ١٠٨٥ ميلادية الموافق الأول من شهر صفر عام ٤٧٨ هجرية، وقعت الواقعة التي ارتجت هاجسبات العالم الإسلامي؛ شرقة وعربه والتي مارالت تمثّل حتى اليوم جرحاً بارقاً في قلب كل مسلم وتريمة شجن حربية تحدد مسيرة قافلة الإيمان عبر الزمن لتندكر أصحابها بحراء الخبوح بعيداً عن المهج الرباني القويم، في ذلك اليوم الأسود الحزين سقطت طليطلة حاصرة الدنيا ودرة الأئمة وعاصمة الأندلس البهية بعد حصار دام ما يقرب من عام كامل استصرحت فيه مروءة حكام الطوائف الحياء فلم يهب أحد لجندتها، وطلوا قابعين داخل جحورهم يتوددون إلى ألفونسو السادس ويدعون له الجزية عن يد وهم صاعرون بسبا يعصمون بكل معارض ويمثلون الرمايين بحيرة العلماء الذين أحلصوا لهم الصبح وحرصوهم على مد يد العون لطليطلة الدييحة، ولكن هيهات أن تُسمع من أخذ إلى الأرض وارتضى المدلة.

وهكذا ظلت طليطلة تحت الحصار تستجد بلا طائل حتى هوت في يوم أسود ودخلها ألفونسو بحيله ورجله فأعمل في أهلها القتل والتشريد وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة، ولما اطمأن إلى أنه استلب الدولة من وسطها وليس من أطرافها وأنه بات قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على كامل الأندلس أسرع بحرق معاهدات الدفاع المشترك التي أبرمها مع ملوك الطوائف ووضع حطة للانتقال من طليطلة إلى ما يجاورها من دويلات، وهكذا انقلب السحر على الساحر، وبانت الدول التي جئت من مد يد العون لطليطلة متعلة باحترام بود معاهدات العار التي أبرمتها مع قشتالة ومتوهمة أنها في مأمن من عذر العدو، بانت هذه الدول المهدف التالي الوشيك لفرسان أكذوبة الاسترداد، وها قد حان وقت الحساب وأشرأت أعناق الشعوب ترقب صيغ قادتها، أترام بقي لهم صنيع ١٩

عن والده وهو في الثلاثين بعد أن توسعت مملكة إشبيلية الحسنية فصمت قرطبة وماردة وأستجة ومرسية حتى أصبحت أقوى ممالك الأندلس حينئذ، كما ازدهرت الحركة العلمية والفنية والأدبية في عهده ازدهاراً كبيراً فعدت إشبيلية بحق عاصمة العلم والأدب في عهد ملوك الطوائف، وبدلاً من أن يدرك حاكمها أن قوتها ومعتها هما سبب ازدهارها فإنه لجأ إلى التحالف مع العدو القشتالي فتقلصت دائرة نفوذه، ولم يقف دله وتراجعه عند حد تقديم التسهيلات السياسية والمالية والعسكرية التي أدت إلى سقوط الحارة الشبالية طليطلة، وإنما بلغ هوانه على نفسه ثم على حليفه القشتالي ما أبلغ السيل الرئي كما يقولون، فيسما هو يعمع بحر لا يبال بمذلة أبداً إذ وصل إليه رسول من العونسو السادس يحمل رسالة عجيبية المحتوى.

تخبرني - قل أن أنقل لكم ما جاء برسالة العونسو إلى المعتمد - رسالة سديدة وصلت إلى الخليفة الأندلسي الأموي قبل نحو قرن من الزمان أرسلها ملك إنجلترا مع سفير من الأمراء يحمل هدايا التودد إلى أعظم ملوك أوروبا في ذلك الوقت «عبد الرحمن الناصر» يرجوه فيها أن يوافق على إلحاق أربعة من علماء إنجلترا بجامعة قرطبة - ثري أكبر أكاديميات العالم وقتها بعد جامعة بغداد - لينهلوا من علوم المسلمين المتقدمة، كما يرجوه فيها أن يقبل إقامة استيه لفترة في قصر الرهراء لتتأدب بالأدب الرديفة ولتتعلم في القصر الإسلامي أصول البروتوكول الملكي، وقد حُتمت الرسالة التي ما زالت محفوظة حتى اليوم بحاتم ملك إنجلترا بجوار توقيع «حامدكم الأمير جورج الثاني ملك إنجلترا».

فلنقارن بين تلك الرسالة وهذه التي وردت من ملك قشتالة إلى المعتمد بن عباد والتي أرسلها له مع وزيره اليهودي شليب يطالبه فيها بإعداد جامع قرطبة لكي تلد فيه روجة العونسو الحامل حيث تبأ لها الكهنة بأنها إن ولدت ولدًا في هذا الجامع فسوف يدين له المسلمون بالولاء.

كل من الرسالتين وردت من ملك أجسي إلى ملك أندلسي، قرطبة هي هي عاصمة العلوم والآداب والفنون، إشبيلية أقوى وأعنى وأجل ممالك أوروبا في عصر المعتمد، فلهذا كانت الرسالة الأولى مثالا للتعزيب لا تحمل الثانية غير مؤشرات الدل الذي

كلمة ضيرت التاريخ

بينما طليطلة العلية تن تحت الحصار الصليبي العادر وتستصرح شهامة من حادوا عن الطريق ورضوا بالذل بعد طول عركن ملوك الطوائف يتفلسون في التودد إلى العونسو السادس ظناً منهم أن ذلك يصرف عنهم شبح الاحتلال ويؤمن بقاءهم وذرياتهم على كراسي الحكم، وجهلاً منهم بحقائق التاريخ هرولوا يقومون بمعاهدات مع عدوهم غلّت أيديهم عن نجدة البحارة المحاصرة حتى سقطت.

لم يجرح عن إجماع الدل سوى المتوكل على الله بن الألفس أمير بطليوس الذي رفض التحالف مع القشتاليين أو دفع الحرية لهم، بل أرسل إلى العونسو إنذاراً شديد اللهجة يهدده بإعلان الجهاد إن فكر في مهذمة إمارته، وحين حوصرت طليطلة بعث بولده الفص من رأس جيش بطليوسي في محاولة لصد الرجف القشتالي، وكان خلال ذلك يبدل ما وسعه جمع شتات ملوك الطوائف ليتفقوا على موقف واحد، ولكن ذهب سعيه أدراج الرياح.

وعن الجانب الآخر وقف المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وأقوى ملوك الطوائف حينئذ موقعاً مغريباً من حصار طليطلة حيث كان بوسعه أن يمد لها يد العون إلا أنه تعلل بمعاهدته مع قشتالة التي نلزمه بنودها بتقديم تسهيلات عسكرية لها فقبض مترقباً متجاهلاً صيحات الاعتراض من علماء الأمة حتى سقطت عاصمة الأندلس التليدة طليطلة.

وُلد المعتمد بن عباد في البرنعل، وكان فارساً شاعراً شجاعاً، وقد ورث الملك

جاور كل الحدود؟ ما العارق بين الناصر وابن عباد؟ كل منهما ملك مسلم، وكل منهما أولى اهتمامًا خاصًا بالازدهار المادي والحصاري لمملكته، واشتهر عصر كل منهما بالاستغراق في المباح إلى حد بلغ الترف والتبذير.

يظهر العارق بين الرسالتين واضحًا في ضوء حديث رسول الله ﷺ «إذا ترك قوم الجهاد سلط الله عليهم دُلًّا لا يبرعه حتى يرجعوا إلى دينهم»^(١)، ولقد كان الخليعة الأموي مجاهدًا يسيما رعي ابن عباد بالقعود، أفترأه رجع بعدما فرط وضع؟ نعم. ولقد أعادته لطمة حليفه إلى الرعي.

كانت الرسالة المحزنة وتناول شليب اليهودي على المعتمد سببًا لاستعادته طهرته الشجاعة الأبية فقتل رسول العونسو ثم استدعى علماء قرطبة على رأسهم فبيها الحلبي عبد الله بن أدهم ليستشيرهم فيما يجب فعله، خاصة وقد كان رد فعل العونسو على قتل رسوله أن تحرك بحبوشه من طليطلة السلية محاصرًا قرطبة، فأجمع العلماء على ضرورة عقد تحالف بين عمالك الأندلس ثم إعلان الجهاد لصد العدو، وهنا يقف التاريخ ليسجل ما دار في اجتماع قمة ملوك الطوائف الذي دعا إليه ابن عباد في قرطبة لتدارك الموقف. نعم يقف التاريخ حزينًا أمامه إزاء تلك اللحظة الحاسمة بين عمر لا يرضى الإسلام عنه بديلًا ومذلة تموي بصاحبها إلى درك ليس له قرار.

كن العلماء قد قاموا بدورهم في شجاعتهم وإيقاظ الضمائر وتبليغ المعاملين وتذكيرهم بمأساة طليطلة فهذا الرأي العام متمحورًا حول قضية الجهاد رافضًا التفاهت عنها أو الالتفات حولها، غير أن ملوك الطوائف وقد أدمنوا القعود وتسربلوا بثياب الدل بدوا مترددين عدا رجلين فقط المتوكل أمير بطليوس الشجاع، والمعتمد ملك إشبيلية الجريح.

قال الملوك: ليس لنا طاقة بالمعوسو وجنده فأجاب المتوكل ما يترصدون ما إلا إحدى الحسيني؟ إما نصر وإما شهادة، قال الملوك عليه حسن الإعداد قبل اللقاء،

(١) أحمد في مستدركه وسنن أبي داود والطبراني في الكبير، والبيهقي في سنن أبي حمزة وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

فأجاب المتوكل فلست تجد بأمر المسلمين، قال الملوك: لا يجتمع السبعان في عمد واحد. يريدون أن يحرقوه من الاستنصار بقوة خارجية فتطيح بمروشهم وتستولي على ملكهم. وهنا يخرج المعتمد بن عباد عن صمته قائلًا في حسم. «رعي الإبل خير من رعي الخنازير»، فماذا كان مقصده؟

الاتساع، قليلة السكان، قاحلة، شديدة الحرارة، عديمة المطر، بكتباتها الرملية الحدية المترامية نضربها الرياح الساحنة فيضطرب سطحها كموج البحر الذي يتقل من مكان لآخر حاملاً معه التصحر والبوار، وما زال رعاة الإبل «الحبال الكدرة» يقودون قطعانهم عبر آلاف الكيلومترات القاحلة الممتدة في جميع الاتجاهات يتلمسون العشب والماء.

غير أن الرمان دار دورته، وبدلاً من موسى بن نصير القائد السياسي الدارع - الذي أدرك طبيعة البربر العصبية على الاحتواء الآتية على احتلال الظلم والقهر والاستبداد فاستطاع خلال ولايته أن يصنع من هؤلاء الحبال الدافرين جيشاً نظامياً قوياً كان طليعة العبور إلى أوروبا وفتح الأندلس - يعد إلى المغرب من الولاة العرب المتعصبين من يهدم أسس العدل والمواخاة الإسلامية التي أرساها ابن نصير، فيقع الصراع بين العرب والبربر منذ مرحلة مبكرة كنتيجة للسياسات العاشلة ليزيد بن أبي مسهم وشعر ابن صفوان، ثم يصل الاحتقان إلى دروته في عهد عبد الله بن الحبحاب الذي لجأ إلى استخدام العنف المقيت في ردع ثورات القبائل البربرية حتى عرا ديارهم وسبى ساءهم فدمجر الوصح بين الطرفين وحدثت فتنة متعاقبة كان لها مردودها السلبي ليس فقط على بلاد المغرب بل امتدت إلى الأندلس التي هاجرت إليها جماعات باقية من البربر فتحالوا مع عرب اليمس ضد عرب الشام الذين ينتمي إليهم ولاية المغرب وتسبوا في الفتنة والقتال التي أنهكت الحكومة الأموية في الأندلس وكانت السبب المباشر لتمرق الدولة ولسقوط عاصمتها طليطلة

هناك نصيحة يسوقها الخبراء لصاحب الحمل الذي يعتدي عليه بالصرع أو الإهانة؛ وهي إما أن يبيعه أو يذبحه؛ إذ الحمل حيوان ذو كرامة ونحوه وإياه فإن أهانه صاحبه فإنه يحترق حقله داخله معها طال الرمن حتى تأتي اللحظة المناسبة فينتقم انتقاماً مروعاً لا يقل عن سفك دماء من أهانه، ولرعاة الحبال الخصيصة دائماً فهم البربر الأحرار ذوو الإباء، لم تروضهم وتستنحرج من نفوسهم أروع ما فيها إلا مبادئ الإسلام العادلة السامية التي تحرر الإنسان من كل عبودية إلا عبوديته لله عز وجل، لذا فالبربر في كل زمان لا يصلح معهم ولا يصلحهم سوى تطبيق النظم السياسي الإسلامي القائم على العدل وبذ العصرية والذي يجعل منهم قوة فاعلة تصاف إلى المجتمع وليس عبئاً

انتقام الإبل

مع نهايات القرن الأول الهجري وبدأت القرن الثامن الميلادي انطلق القائد المسلم طارق بن زياد على رأس جيش بلغ اثني عشر ألف رجل من البربر من مدينة سبتة بأقصى شمال المغرب عابراً البحر البحري بين قارتي إفريقيا وأوروبا - مصيق جبل طارق - فانحأ الأندلس، ماقلًا قبسة من نور الإسلام من صحراء المغرب إلى بلاد المصح لتصبح بمصله حاضرة أوروبا الراهرة

ومع بدايات القرن الخامس الهجري ونهايات القرن العاشر الميلادي - أي بعد ثلاثة قرون فقط - تصيب المسلمين على جانبي المضيق ذاته آفة الاحتلاف والتمرق وتمريق أواصر الدولة والدخول في نفق الطوائف المظلم، تتمرق الأندلس إلى دويلات يتقاسمها المولدون أهل البند الأصليين والعرب والبربر من العائجين والمهاجرين، بينما تتمرق المغرب إلى أشلاء يتقاسمها السكان لأصليون البربر ويأرعهم عليها عرب ليسوا كالعرب العائجين الذين جاءوا بشرون النور والهدى والرحمة في ربوع المكان وإنما يتشعرون إلى معدن آخر ويعتفون فكراً ومهجاً لم يتسبب فقط في تمريق أواصر الدولة الإسلامية القوية في المغرب وإنما تسبب في إحراج البربر من دين الحق الذي دخلوا فيه أهواجاً مع استنفاد لافئة الإسلام مرفوعة دون محتوى - حتى قال عنهم العلماء - ومهم من حلدون - إنهم في تلك المرحلة من التاريخ كنوا قد خرجوا بأفعالهم من الملة الإسلامية.

لكي نفهم مقصد المعتمد بن عباد من قوله التاريخية «رعي الإبل خير من رعي الخنازير» يحسب بنا أن نعبّر مصيق جبل طارق عائدتين إلى صحراء المغرب الكبرى التي لم تعتبر سبباً طبيعياً مد تركها لقائد البربري المظفر قبل ثلاثة قرون مما دالت شاسعة

يعرقل مسيرته كي في فترات الضعف والانحلال والاستبداد بالناس وظلمهم تحت راية الإسلام.

وهكذا تسبب استبداد الولاة وعشوائية سياساتهم في أن تصبح منطقة القبائل مرتعاً حصيلاً لحركات الانفصال المذهبية لدولة الخلافة حتى مع تناقص مطلقاتها الشرعية، فمن الخارجية الإباضية إلى التشيع الإسماعيلي العاطمي انحرف مسار البربر بعيداً عن النهج الإسلامي القويم، إنه الانتقام البربري المروع النشبه بانتظام الإبل؛ ذلك الذي أدى إلى أن نشأ في بلاد المغرب بواة الدولة العاطمية على يد الداعي أبي عبد الله الشيعي، وهي الدولة التي بدأت - حسب الاعتقاد الإسماعيلي - في عيبة الإمام المهدي المعصوم الذي ادعوا ظهوره في شخص عبيد الله المهدي أول الخلفاء العاطميين والذي سب نفسه لآل بيت النبوة من ذرية السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

غير أن موقفاً طريفاً حدث عندما حرق الداعي على رأس وفد من أعيان القبائل لاستقبال الإمام المهدي عند قدومه إلى المغرب ألقى في يدهم بذرة مسكرة من السمور من هذا الانجاء برمته، فقد هوجن القادة بالداعي الشيعي الذي وفروه وقدموه وأعلوا مكانه بينهم يرسل عن دبه مكياً على يدي وقدمي عبيد الله المهدي يقبلها ثم يسمح بقواته دية سيده في حصوع مدل مهين، وإدبه يلتصق إلى رؤوس القبائل قتلاً لهم «هذا مولاي الإمام فهو مولاكم»، هاهم الموقف وبذا ذلك واصحاً على ملاعهم المشحونة البافرة فتنبه عبيد الله وقال لداعيه بذهابه «هل قل لهم هو المهدي اس المهدي سلاله الهدية»

كانت بذرة النشك والسمور قد أُلقيت في يدهم قوم دخلوا قبل زمان طويل في دين جاء ليحرر البشر عنهم من عبودية الشر كلهم وليعتدهم لرب واحد لا شريك له، دين قال رسوله لرجل اضطرب من مرط هيبته ﷺ «هَوْنُ حَلِيكَ فَلَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ مِنْ قَرِيْشٍ كُنْتُ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»^(١)، فما بال رجال يأتون يسبون أنفسهم لهذا الرسول الكريم - صدقاً أو رور - يرضون لأتباعهم أن يصنعوا بهم فوق ما تصنع الأعاجم بملوكها؟ لذا فما كاد المستور يكشف ويتخلص الإمام من داعيه يقتله قتلة شعاع بعد انتهاء مهمته حتى ثارت النعوس عمدة لتحول سياسي هام.

(١) أخرجه الحاكم، وابن ماجه، والطبراني، من حديث جرير، وصححه السيوطي في الجامع الصغير

الخروج من الملة

عقب وفاة عبيد الله المهدي تولى الحكم في المغرب ابنه القائم أبو القاسم محمد، لكنه عدل عن منهج التقية الذي اتخذه أبوه وقام بإظهار مذهبه حيث أعلن الطعن على كتاب الله وسب الصحابة وإرغام الناس على التشيع بالقوة وتعذيب من يعترض حتى الموت، وهما أدرك البربر ما جتته أيديهم فثاروا على الدولة العاطمية التي مهدوا لتأسيسها وهي الثورة التي قادها علماء السنة والجماعة من أتباع المذهب المالكي وجانبها العاطميون بعنف دموي ليس له مثيل حتى شهدت منطقة القبائل المغربية مدح متتالية عُرفت في التاريخ بـ «عصر شهداء المالكية» على غرار حضور الشهداء القبطية.

إلا أن الثورة المالكية لم تبدأ رغم محاولة العاطميين العودة إلى تطبيق مبدأ التقية وإحفاء حقيقة المذهب وبدل الأموال وأهدايا لاستئالة العامة وإسبا طلت مشتملة حتى ارتحل المعز لدين الله العاطمي إلى مصر ليقيم بها الدولة العاطمية، وكانت آخر وصاياها لثبته بالمغرب ألا يرفع الحباية ولا السيف عن البربر! هؤلاء البربر الذين كانوا بعد زمن طويل من المعاناة ومن الانحراف عن الإسلام - قد خرجوا من الدين بالكلية عدا لافقة فارعة المصومون، ساعد على ذلك الطبيعة الجعرافية الوعرة التي جعلتهم يمسأى عن علماء الدين الذين تجمعوا في منطقة القيروان بعد المذابح التي أسكنتهم فاعتزلوا الناس وتفرغوا للعادة وللدراسة العلوم في أماكن قريبة من الساحل الشمالي سُميت بالأرطة وكانت تشبه في تلك الفترة إلى حد بعيد صوامع الرهبان الصحراوية.

على مدار قرنين من الزمان أنسل البربر المسلمون من دينهم ونقصوه عروة عروة حتى خرجوا منه تفتاً وهم يظنون أنهم مسلمون، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول «لتنقص عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقصت عروة تشبث الناس بالتي تبينها،

وأوهى نقصاً، حكم وأحرهن الصلاة^(١)، ولقد وصل الأمر بهم إلى حد وصع شرائع خاصة للمعادات وللمعاملات فخرج منهم من جعل الصلاة مرتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ومن أسقط عنهم الوصوء، ومن حرم عليهم أكل السمك حتى يُذبح وأحل لهم لحم أنثى الخنزير، ومن رعم أنه المهدي المنتظر القادم لقتال المسيح الدجال، وعادوا إلى ممارسة السحر والشعوذة كيهود وثنيهم، كما انتشر الرنى والإباحية بشكل كبير، وكان للمرأة في هذا الجحوش دور كبير.

ذلك أن المرأة البربرية ليست جميلة فحسب بل هي أجمل نساء الأرض فاطبة كما قرر كثير من الرحالة والباحثين ولما في نساء الطوارق^(٢) الخاليين شواهد عدة، وإذا كانت منطقة البلقان قد اشتهرت بأجمل الأنثوي فإنه من ذلك النصف الذي ينتمي بطبيعته إلى نوعية «الخريم»؛ لذا يأتي الإسلام ليحررهن من إفساد ذلك الخريم وليستهنصنهمهن، أما البربرية فجعلها من نوع مختلف... إنه ذلك الجمال العطري الرعوي المتمرد بطبعه والمكتمل بالقوة الحسدية والعسية كليهما؛ لذا فإن النهج الإسلامي القويم يتكامل بوضع الضوابط التي تحمى من تحورها العطري لتسمو بنفسها عن الدنياه دون أن تعوق حركتها أو تعطل شخصيتها وهو ما يتضح لنا من دراسة سير الشخصيات الساتية البربرية على مر التاريخ.

ولقد تميز المجتمع البربري منذ فجر تاريخه بالنظام الأموي «الانترياركي» الذي يسمح للمرأة مركز السيادة في الأسرة وينسب الأبناء إليها، ومن ذلك أن اسم أكبر القبائل البربرية على الإطلاق وهي صنهاجة - أجداد الطوارق الخاليين - هو اسم امرأة، وكذا قبيلة لمنونة أحد أمراء صنهاجة تنتسب لامرأة أيضاً، وهو الحال في كثير من قبائل البربر التي استمرت المرأة فيها - حتى بعد علنة النظام الأبوي «الانترياركي» - تتمتع بمركز ممتاز أقرها عليه الإسلام ووضع له الضوابط، فلما كان الخروج من الملة عادت تقاليد الجاهلية ترزى بالمرأة وتخرجها من حصن عفافها إلى إباحية لا نظير لها.

(١) الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرک، عن أبي أمامة الباهلي
(٢) لأصح كتابتها «توارق» وليس طوارق، وهي كلمة أمازيغية عبر عربية ومعناها الأرض المسقية، ولا صلة بينها وبين طارق بن زياد الذي ينتمي إلى قبيلة نفراوة من بربر البتر، بينما الطوارق «التوارق» المعاصرون هم أجداد صنهاجة؛ أكبر قبائل بربر البرابرة.

يروى المؤرخون وعلماء الاجتماع عن وضع المرأة البربرية الكثير - مثل عادة إكرام الصيف؛ بأن تبيت معه إحدى نساء الأسرة، كما انتشر في ذلك الوقت نظام عجيب يسمى «المزاخاة» - يشبه ما أطلق عليه إعلامي في الوقت الحاضر «فتوى إرصاد الكبير» - وفيه تقوم المرأة بوصف دقيق ميلل بالريت على ثديها فيأتي الرجل الغريب فيأكل من هذا العجين ليصح بذلك آت ها وأخا لأبائهما، ناهيك عن انتشار حفلات الموسيقى والعناء المختلطة والتي يتلاقى فيها العشاق ويتم خلالها الاتفاف على الزواج أو ما دون ذلك من علاقات لا تطبي شطحت عن السياق لأكتب عن أوروبا الحديثة، ولعل عجبك يزول إذا ما علمت أن رقصة الملايكو الإسبانية الشهيرة أصلها بربري من صحراء المغرب، ولبتك تستحضر إيقاعات موسيقى الراي القبائلية التي يترافق على ألقابها الصاحبة الساحرة الشاب المعاصر في بقاع الأرض ليتمكنك تصور الإطار الواقعي المحيط بالأحداث.

في خصم تلك الجاهلية الثانية - إذ عندما يذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم تعبير «الجاهلية الأولى» فذلك معناه أن هناك جاهلية ثانية وثالثة تطبق بظلامها كلما أعرض المسلمون عن دينهم ويقصروا عراه - وتحديد في عام ٤٢٧ هـ الموافق ١٠٣٥ م بقرار أمير قبيلة جدالة الصنهاجية الخروج من دياره فاصداً مكة المكرمة لأداء فريضة الحج بعدما مر وقت طويل قبل أن يفكر أحد قادة البربر في إحياء تلك الفريضة، لكننا لن نعجب إذا علمنا أن الأمير يحيى بن إبراهيم الحدادي كان رجلاً شهياً شجاعاً ذا عقل راجح كما كان متمسكاً بما بقي له من علم ديني، وآية ذلك أنه كان مكتعباً بتسع زوجات من الخرائر تعبيراً الآية ﴿فَأَمَّا كُمُومًا طَابَ لَكُمْ مِنَ الْيَسْلَوِ مَثَقٌ وَتِلْكَ وَرِثَةُ﴾^(١) والتي فسروها على أن المباح حاصل جمع الأعداد كلها فتصبح تسعة!! هكذا وصل الحال بأصدقائنا البربر نتيجة سياسات الفهر والاستبداد والتميز العنصري، غير أن أحداثاً معصية كانت في انتظار الأمير الحاح بعد هودته من رحلته الميمونة.

حج مبرور

يتعجب كثيرون لإطلاق لقب «الحاج فلان» على من يقوم بأداء فريضة الحج ويتماكة المعص متسانلاً. ولم لا يطلق على من يصلي أو يصوم لقب المصلي فلان أو الصائم فلان؟

والحقيقة أن لقب الحاج له في التاريخ أصل، ففي الأرمية السابقة على اختراع وسائل المواصلات الحديثة من سيارات وقطارات ثم طائرات كان القاصد لأداء فريضة الحج يحتاج عدة أشهر للانتقال من موطنه إلى بيت الله الحرام دهاناً ومثلها إياباً سائراً في البرية راجلاً أو راكباً دابته حتى يصل إلى مقبته، فعدت تلك الرحلة بحق بمشاة رحلة عمر لا يرجع منها إلى وطنه قبل مرور عام أو عامين على الأقل هذا إن رجع، فهو يمر في الطريق إلى مكة بعدد من البلدان فيبقى فيها لأسابيع أو لشهور قبل استئناف رحلته، فإن كانت البلدة إسلامية ففيها مساجد وعلما يجلس إليهم ليستمع ولينقلق المعلم الذي يفقه من مستوى دراسي إلى مستوى دراسي أعلى، كل حسب احتجاده بتعبير عصري يمكننا القول إن الدراسة الشرعية الأولية التي يتلقاها الشخص في موطنه استعداداً لرحلة الحج تلحقها دراسة جامعية دهاناً ثم دراسات عليا إياباً يجبره عليها العلماء، فإن حصل على لقب «حاج» فهو يشبه اللقب الأكاديمي الحالي كلقب دكتور مثلاً.

وكذا فعل الأمير الحاج يحيى بن إبراهيم الخديلي الذي أدرك خلال رحلته لأداء العريضة حقيقة الحال التي وصل إليها بربر صهاجة والذي يزاوج بين جهل مطبق بأحكام الدين وخروج بالكلية عن الملة، فعقد الحرم على استنفاد نفسه وعشيرته من ظلمات الجاهلية، فعرح في طريق عودته على القيروان، العاصمة الثقافية لإفريقيا والتي

استقر بها من بقي من علماء السنة والجماعة بعد مذبحة المالكية حيث أسسوا مدرسة كبرى كان يترعها عدد وصول الأمير الحاج رجل من حيرة علماء المذهب اشتهر بعراة العلم الذي ارتحل شرقاً وغرباً لتحصيله من مصادره فدرس في أكبر جامعتين في العالم في وقته «قرطبة» و«بغداد»، قبل أن يعود إلى القيروان ليتولى رعاية المدرسة المالكية فيجعلها قبة الباحثين والدارسين. . . ذلك هو الإمام أبو عمران العاسي فقيه عصره الذي قدر الله أن يلقاه الأمير يحيى الخديلي فيحدثه عن أحوال قبيلته جدالة وسائر القائل الصهاجية معضياً إليه برعته في أن يرسل معه أحد تلاميذه ليُعلم الناس أصول دينهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

لم يكن الإمام العاسي ليردد في مد يد العون للأمير الخديلي، بل إن واجبه الديني يحتم عليه أن يرسل معه من يدعو الناس للعودة إلى دين الله الحق، غير أن الحاجة كانت في اعتدال جميع تلاميذه عن القيام بهذه المهمة في تلك المجهل الصحراوية البعيدة عن العمران والتي لا يعرفون لغة أهلها الأمازيغية، ولما تعهد الأمير بحماية وإكرام من يذهب معه أجابه أحد المرشحين بأن أهل الصحراء وقد عهدوا لعادتهم الجاهلية فإنهم إن طالبهم أحد بخلاف ذلك قتلوه!

لم يجد الإمام العاسي بعد رفض علماء القيروان القيام بالمهمة إلا أن يبحث برسالة مع الأمير الخديلي إلى واحد من قدامى طلبته الذي أصبح فقيه بلاد السوس المتاحة لساحل المحيط الأطلسي بالمغرب الأقصى ويدعى وجح بن رلوا من بربر لطة إحدى فروع صهاجة يطلب إليه فيها أن يرسل مع الأمير أحد تلاميذه العالمين العاملين ليقوم بدوره المأمول، وقد أحس الإمام الاحتيال كما أحسه فقيه السوس إذ وقع اختياره على رجل عن تزادان صفحات التاريخ بأسمايتهم.. بل قل إن الإمام العاسي وتلميذه اللطفي قد اجتهدا إلا أن الله سبحانه قدر لهذا الرجل العظيم عبد الله بن ياسين، أن يقوم بدور من أعظم الأدوار في تاريخنا الإسلامي.

عبد الله بن ياسين الحروبي من قبيلة جرولة الصهاجية. بربري، أسمر، من جنوب الصحراء العربية، ذو جسد ضامر قوي، سريع الحركة، ذكي، ذو مهارة وفطنة ووقار، عالم فقيه درس في المدرسة المالكية بالمغرب وارتحل إلى الأندلس ومن مدوك الطوائف

بقي فيها سبع سنين يستريد من العلوم قبل أن يعود للاستقرار مع وجاج بن رلوا على ساحل المحيط الأطلسي، وإد ألقى فيه السوس على عاتقه المهمة الثقيلة للدعوة داخل الصحراء هت الرجل ملتا عبر وجل ولا متردد، متوكلاً على الله وأهلاً معه وحياته لوطبة الأنبياء والأولياء.. أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور مهمة نبون في سبلها الحياة كلها

ورثة الأنبياء

خرجت قبيلة جدالة تستقل أميرها الحاج يحيى وعينه الكريم وما إن عرفوا أنه أحد علماء المالكية حتى التزموا حوله مرحلين وأحاطوه بهالة من التوقير جذيرة بحامل سنة رسول الله ﷺ فاطمأت نفس ابن ياسين وشعر يسر مهنته وبأنه سيمضي في ديار جدالة أياماً مليئة بالخبر في نشر تعاليم الدين وتدريس أحكام الشريعة، وقد قام الأمير الجذالي بحملة دهائية للشيخ الداعية أسفرت عن حشد أفراد القبيلة للاستماع إليه وتلقي العلم عنه، فبدأ في إلقاء الدروس على الناس وتذكيرهم بالآخرة وترعيمهم في الحمة وترعيمهم من النار فتأثر الناس به وتكاثروا من حوله، واتسع نطاق شهرته حتى بلغ أرض لتونة المجاورة فوفد منها المريدون والأنصار ثم خرج إليهم ابن ياسين بصحبه الأمير الجذالي حتى إذا اقترب من مصارب لتونة نزل الأمير عن حمله وأمسك برمام حمل ابن ياسين إجلالاً له وخرجت القبيلة لاستقباله وعلى رأسهم أميرها، وأخذ ابن ياسين يتنقل بين جدالة ولتونة يلقي دروسه الشرعية والناس منصتون.

حتى ذلك الوقت لم يكن الداعية قد خرج بدروسه عن تعليم الناس شعائر العبادات من صلاة وصيام وركاة فاطاعه أكثرهم، إلا أنه عندما حدثهم عن ضرورة تطبيق أحكام الشريعة على سائر أمور حياتهم أجابوه قائلين: «هذا أمر لا يلزمنا ولا يدخل تحت».

يبقى الناس مستمعين مستمتعين بحطط ودروس الوعاط والدعاة طالما اقتضت على الرفائق كالتدكير بالآخرة والترعيب في الحمة والتخويف من النار وهم يجلسون مطمئنين يحركون رءوسهم تأثراً وربما طهرت من أعينهم العبرات ثم تنتهي الخطبة أو الدرس فيمضي كل إلى غايته حتى الموعد التالي الذي يمثل لهم برهة روحية ومرصة للسمو النفسي بعيداً عن متاعب الحياة، وقد يبدأ بعضهم بالتأمل إذا ما اقترح لداعية برهاناً للعمل ينقل الناس من مجرد مستمعين إلى مطبقين للعبادات كالصلاة والصيام والركاة فيعتلون تبعاً ويصمد من سكن في قلبه إيمان ينقله من متطفل ساكن إلى فاعل متحرك، فإذا انتقل الداعية من الرهة في بستان العبادات إلى الحرت في حقل العبادات الاجتماعية المتأصلة كذلك المتعلقة بصوابط الاحتلاط أو الملنس أو الإقلاص عن بعض العادات الصارة التي تناقض بظافة الإسلام وسموه رد التملت وقل عدد الصامدين، وإذا ما صارحهم الداعية بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية على كل مباحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية سواء المتعلقة بالفرد أو بالجماعة وأن هذا التطبيق الشامل ليس أمراً اختيارياً أو انتقائياً إنما هو الجوهر الحقيقي لشهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فلا يقوم الإسلام إلا به وتظل الجاهلية جائمة أو تعود لترجي سدوها بدونه ولورفع الناس شعارات الإسلام عالية وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً

مِمَّا فَصَّيْتُ وَكُتِبَ وَأَسْلِمًا ﴿١١﴾ وَلَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا يَقُورَ يُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾، حينها تكون الطامة الكبرى.

لذا فإن أكثر الدعاة يتجمد عند مرحلة أو أخرى من مراحل الدعوة لا يجاوزها صفاً
ممكنه عند الناس أن تترعرع وإشفاقاً من أن يفقد أتباعه أو أن تتعرض له السلطة
المستبدة من نظم الجاهلية سوء، يستوي في ذلك من تصحمت ذاته فعلت مراته
لها على مراقبته لربه، أو من غلب حوجه من الناس توكله على مولاه سبحانه وتعالى،
أو من ريس له الخوف والطمع تزييف الحقائق والكذب على نفسه ثم على الناس بادعاء
التيسير عليهم لاجتذابهم ثم لا يتحرك بعد ذلك قيد أنملة وإنما يمضي في طريقه مطمئناً
إلى التصاف الناس حوله ثم إلى ترحيب أعداء الدين مصهجه حتى يصحح نجماً يشار له
بالبان ثم يعمم برهانية تلهيه ونسبه الحقيقة الأرية الثالثة في كتاب الله من أن كثرة
الأنواع لا تعني أبداً صحة المذهب ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾،
ومن أن أسياء الله الدين جاءوا أقوامهم بالحق - لا شهة به - لم يقبلوا مترحاب ولا
بكثره أنباع ولا بطرق معروضة بالورد، وببالتكذيب والقتل والتشريد ﴿أَفَكُلَّمَا
جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ﴿١٤﴾، وإن
سنة الله الماصية في خلقه أن يكذب الناس رسل الحق ويؤذوهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُتَكِبِّينَ﴾ ﴿١٥﴾، فبصبروا ويصابروا حتى يتصبروا بعد عناء شديد ﴿وَلَقَدْ
كَلِمَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْهَضْنَا مُرْسِلًا وَلَا مَبْدُولًا لِكَلِمَتِ اللَّهِ
وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ﴾ ﴿١٦﴾، لذلك أمر الرب تبارك اسمه رسوله ﷺ بالندرع
بالصبر؛ لأن الدعوة إلى الله ليست عملاً سهلاً قريب الثمرات وإنما هي حوث شاق في

(١) سورة السراء، آية ٦٥

(٢) سورة المائدة، آية ٥٠

(٣) سورة يوسف، آية ١٠٣

(٤) سورة البقرة، آية ٨٧

(٥) سورة الفرقان، آية ٣١

(٦) سورة الأنعام، آية ٣٤

بعوس صحرتهما الأهواء وقزمت أشواقها فطلعات صغيرة إلى مكاسب دنيوية تافهة
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ﴿١٧﴾.

يتقل هؤلاء الدعاة - الجوم - خوفاً من الناس وطمعاً في عطائهم المادي أو المعنوي
من خيانة العلماء إلى خيانة خراء التنمية البشرية إذا ما طهروا في مجتمعات قد استقر
فيها الإسلام وحُكم فيها شرع الله، أو إلى خيانة المرورين لحقائق الدين إذا ما وجدوا
في مجتمعات لم تخرج بعد من جاهليتها إلى الإسلام أو ارتدت إلى الجاهلية كما حدث
في العالية العظمى من المجتمع البربري وبخاصة قتائل صهجة عندما وصلها
الشيخ عبد الله بن ياسين، ولقد مرَّ الله سبحانه على الشيخ الدعية بذلك الكاريزما
التي مكنته من حشد الأنصار في وقت قصير، فقد كان خطيباً موهوباً عالماً جدياً حلو
المعشر والحديث، وقد استخدم في دعوته اللغتين العربية والأمازيغية معاً في مهارة تتيح
لمختلف الطبقات الثقافية أن تتفاعل معه فالتف حوله أفراد قبيلتي جدلة ولتنوة وداع
صيته بين القبائل الصهاجية الأخرى حتى توافد لسماعه طلاب العلم من كل مكان،
ولقد كان في مقدور ابن ياسين أن يتجمد عند مرحلة من الدعوة لا تصطدم بالأعراف
ولا بالنظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة مما يتيح له استمرار هذا التواصل حتى
يصبح نجماً لامعاً في سماء صهجة وبها مكانة راقية في المجتمع يتبجحها له انتعاف
الجمهور حول فقيه المالكية الأمازيغي، وهي المكينة التي وصمته وقتها فوق أمراء
القتال، وقد كان في مقدوره أن يمدح نفسه بأن هذا هو غاية ما يمكن أن يصل إليه مع
هؤلاء البربر الخارجين عن ملة الإسلام وأنه يكفيه فخراً أن جعلهم يؤدون الصلاة في
أوقانت الصحبة ويصومون رمضان ويكتفون بأربع زوجات ويحرمون بعض الحرام
ويحلون بعض الحلال في صيغة نوافية ترضي الجميع ولا تجعله يحسر مكانته أو يصطدم
بهم منذ بداية الطريق، أمثراء فعل؟

لا. فمن كان له من قوة الإيثار ومتانة العزم وصدق الإخلاص وعلو الهمة وتوحيد
الخوف والرجاء مثل ما لا بن ياسين لا يمكن أن يُصور منه أن يريف على الناس حقيقة
ديهم وأن يرضى منهم بما لم يرض به الله ورسوله، وإنما هو الدخول في الإسلام كله أو

(١٧) سورة الأحقاف، آية ٣٥

نقضه كله، فلا انتقاء ولا تزييف ولا خلط بين دين الله وأديان البشر ﴿يَأْتِيهَا الذِّكْرُ
ءَامْسُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَكَافَّةٍ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(١)، هؤلاء هم
العلماء الحقيقيون الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»^(٢) فهي وراثته
الدعوة والمهجة والمعة حتى يكون الدين كله لله، لذا فما أن أدرك أن القوم يرفضون
تطبيق أحكام الشريعة حتى واجههم بصراحة وبحزم ويعتف أيضاً.

دعوة الحق

علبت الطبيعة الأمازيغية الحدة والمتصلة على العريقين سواء في ذلك أفراد قبيلة
جدالة الذين رفضوا ما دعاهم إليه ابن ياسين - بعد فترة التوعية الأولى - من تطبيق
أحكام الشريعة الإسلامية التي برلت لتحكم حياة الأفراد والجماعات في كل نواحيها
دون استثناء، أو الفقيه المالكي ذاته الذي قابل تصلبهم بتصلب مماثل وجابه عنهم
بعض مصاد، ولم يجد في موقفه هذا عوناً من الأمير الخاج يحيى بن إبراهيم الذي علنه
المرض، وما لبث أن توفي تاركاً عند الله بن ياسين والفئة القليلة التي آمنت بدعوته في
مهب الريح.

ظهر بوضوح - منذ أن انتقلت الدعوة من مرحلة دعدة الحواس الإيبانية جمهور
المستمعين إلى مرحلة العمل الجاد لإقامة دين الله في الأرض - أن لوبي أصحاب المصالح
سوف يقاوم بشراسة أية خطوة عملية تؤثر على مكتسباتهم التي تحصلوا عليها من نظام
جاهلي تعمل في الغموس وما لبث أن عاد يطبق بظلامه على الجميع، فمن تراه منهم
يقبل طواعية أن ينزل عن سلطاته القبلية ليتساوى مع أفراد ينظر إليهم باستعلاء إعمالاً
لشريعة العدل والمساواة في الحقوق والواجبات؟ ومن تراه منهم يوافق على التحلي عن
أرباحه الوفيرة التي تحصل عليها من إقراض الناس بالربا أو الاستيلاء على أموالهم أو
المتاحرة فيما حرم الله تعالى من خمر وغيره؟ ومن تراه يرضى بكبح جماح عريته التي
أطلقها النظام الجاهلي من عقابها ليعود يرفل في ألال المصيلة؟ ومن تراه يوافق على
تطبيق الحدود فتقطع يد السارق ويجلد شارب الخمر - إلى آخر ذلك من الأحكام

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٨

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي
الدرداء.

الإسلامية التي نبذوها وراء ظهورهم واستبدلوا بها أحكاماً عرفية شرعوها لأنفسهم وأعادوا بها سيرة الأجداد قبل أن يشرق عليهم نور الإسلام قبل نحو ثلاثة قرون؟

لداً فما أن توفي الأمير الخاج الذي استصف ابن ياسين وتكفل بحمايته حتى سارع لوبي أصحاب المصالح بطرده خارج جدالة قتلناه تلاميذه من قبيلة لثونة بالترحيب والتعوا حوله، ولكن ما لبث الأمر أن تكرر في لثونة فما أن طالبهم ابن ياسين بتطبيق شريعة الله حتى انفضوا من حوله تاركين إياه وفئة قليلة - كسنة الله الدائمة - في مواجهة لوبي أكثر شدة وبأساً وأحرص على مكشباته الظلامية من ذلك الذي حلعه وراءه في جدالة.

لم يكن أمام ابن ياسين أي خيار، فإما الحق وإما الباطل ليس بينهما امتزاج أو صيغة توافقية أو حل يرضي جميع الأطراف ﴿وَلَا تَكُونُوا تَبَعِيَّاتُكَ عَنِ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْفَعِي عَلَيْهِمْ عَزْمًا وَإِذَا لَا تُحْمَدُوكَ حَيْلًا ۝٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَّ كَيْدُ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ إذا لَدَفْنَاكَ يَصْعَفُ الْحَيَوةُ وَيَصْعَفُ الْمَمَاتُ ثُمَّ لَا يَحْدُثُكَ حَيْثُ نَصِيرًا ۝٧٥﴾ هكذا حذر الرب مبارك اسمه سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ، فما ظلك بورثة الأنبياء لو مالوا ومزطوا وربوا وربوا؟ ولقد ثبت الله تعالى فصله شيعنا المذكي الحزولي لصهاجي بما مال عن الحق ولا ساوم وإنما صمد في مواجهتهم مكتنميناً بالمئة المؤمنة فأشأ بهم جماعة أطلق عليها اسم «جماعة أهل الحق» تكوّن من بعض الشباب والعبيد والعقراء والمستصغين الذين اعترلوا قومهم وبوا في قلب لثونة شبه مدينة خاصة تضمهم أطلقوا عليها «أرتسي»، وحرموا على أنفسهم أكل ذبائح الدس أو التعامل معهم، ثم أخذوا يخرجون عليهم بين حين وآخر يأمرونهم بالمعروف ويهونهم عن المنكر ببرة حادة ما لبثت أن انقلبت عنماً وصداماً.. فبدأت المعارك بين الحائنين وسالت الدماء وضربت الفتنة أطرافها وجماعة أهل الحق صامدة في أعلاها إلا قليلاً يتعلّقون بين الحين والآخر تحت صعط قسوة الواقع، أو تدبّد الإيثار بجدوى ما يفعلون، أو انهزاماً أمام سلطة سياسية قوية وممكنة، وسرور الرمن انفس آخرون من حول ابن ياسين فتفدّل عدد أتباعه إلى أفراد قلائل لا قيل لهم بالاستمرار في الصدام

والمواجهه إلى ما لا نهاية حتى بدا للمراقب من بعيد أن تلاميذ الإمام العاسي في القيروان كانوا على حق حين اعتدروا - قبل نحو خمسة عشر عاماً - عن مهمة الدعوة في الصحراء، إلا أن الداعية البربري ابن ياسين بدا في صلابته وكأنه قرر الوقوف بمفرده أمام طوفان هائل من حملات الرقص والتشويه والإيذاء وتحليّ الاتباع، وفي تلك الأثناء وصلت إلى الداعية من بعيد رسالة زلزلت كيانه.

من ساحل المحيط الأطلسي أرسل وجاح بن زلوا فقيه السومس - الذي وصلته أنباء جماعة أهل الحق - برسالة شديدة اللهجة إلى أميرهم - وتلميذه القديم - عبد الله بن ياسين يعاتبه فيها على أسلوبه في الدعوة الذي أجج يراة العنف في لثونة ويقول له في نهاية الرسالة: «ما هكذا فعل رسول الله ﷺ»

قرأ عبد الله بن ياسين رسالة أستاذه الفقيه المذكي بينما كان في شدة الضيق والكرب وقد انفض من حوله أكثر أعضاء جماعته وهدم أهل لثونة مدينتهم العاصلة «أرتسي» وهددوه بالقتل إن لم يرحل عنهم، ولم تكن كل تلك الأحداث ثمت في عضده إلا أن رسالة ابن زلوا زلزلت بالفعل كيانه ولم يدر بماذا يجيب ولا لماذا تحمل عبء الفقيه العظيم الذي تتلمذ على يديه، كان ابن ياسين داهلاً يطرح على نفسه العديد من الأسئلة يسأها تمكّنت مجموعة من طرده هائلاً من لثونة فحرح وحيداً جريحاً بحرق الثياب تسيل من رأسه وقدميه الدماء ولا يحمل من الراد سوى بصع تمرات أعطاهها له شاب من جماعته القديمة استطاع أن يخترق الحصار ليودعه الوداع الأخير.

كانت جراح المهرمة ترف من صدره وهو يمضي في طريقه مردداً: «لقد نحل عك الجميع يا ابن ياسين»، وقد روت دماء قدميه الحافيتين رمال الصحراء يسأ لم يجد من حوله ماء يرويه ولا ظلاً يأوي إليه في المهجر موقف متطعاً لما وراءه - تيمم برمال الصحراء الطاهرة ثم وقف يصلي، كان الحر لامتاً يحق الأنفاس وقد لاحت من بعيد بوادر عاصفة رملية آن أوانها، أطلق العنان لدمع عرير فاص من عيبه ورفع يديه صارخين إلى السماء وهو يادي وحيداً في البرية «اللهم إن لم تكن عاصفاً علي فلا أنالي» - لث ملثاً حتى مالت الشمس قليلاً عن كبد السماء ثم قام فمضى خفياً مسرعاً نحو الجنوب

طال المسير مابن ياسين يستريح قليلاً ويواصل كثيراً حتى اجتاز منطقة الصحراء وبلاد موريتانيا كلها، لم تك قد تبلورت في ذهنه خطة محددة للمستقل لكنه كان عازماً على إكمال مسيرته حتى نقطة معينة تصلح بداية للانطلاق من جديد، وفي أمراده نفسه وتفكره في ملكوت الله ومراجعتة لتجربته الدعوية السابقة بإيجابياتها وسلبياتها وتأمله في رسالة وجاح بن زلوا التي حفظها عن ظهر قلب وثقته في علم وإخلاص أستاذه العقيد التي أطعأت بمرور الوقت اشتعال غضبه حين استشعر لأول وهلة بصيرته لأهل الباطل عبه، في غضون ذلك كله بدأت الرؤية تتضح أمامه أكثر فأكثر.

كان يقضي نهاره باحثاً عن صيد يقتصه لطعامه ويقضي ليله متنسكاً متعبداً قنفاً وساجداً يسأل الله الثبات والتوفيق ويسأله المعية والسداد ويسأله إخلاص القول والعمل ويسأله أن يبرر الطريق أمامه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) فاستجاب له ربه.

يتمسك الدعاة الريانيون بدينهم لا يرضون عنه بديلاً، لا يُرفون ولا يرينونه بالكذب ولا يرضون من الناس بها لم يرض به الله ورسوله، لكن كثيراً منهم - رغم الإخلاص وصدق الية والاستعداد للتضحية - يتناسون حقيقة أن هذا الدين كما أنه رباني فمصح الدعوة إليه لا بد أن يكون ربانياً بالمثل، لذا جاءت رسل الله لا لتقل تعاليمه فقط إلى الناس وإنما لتكون شخوصاً واقعية تتحرك بهذه التعاليم لتصبح نماذج صالحة للاقتداء في كل وقت، ومن هنا كانت العبارة الأخيرة في رسالة وجاح بن زلوا لعبد الله بن ياسين: «فما هكذا فعل رسول الله ﷺ»، نعم يا عبد الله فلتك لم تك مجرد جملة إنشائية وإنما كانت صيغة تنبيه للمعاليين عن منهج الحق، فلقد جاء محمد ﷺ بالدين وجاء أيضاً بالمنهج فلم تتبع الدين وعملت عن المنهج؟ وكيف يكون لك أن تدعو الناس إلى حكم الله عن طريق آخر غير طريق الله؟ أم هكذا تكون الدعوة أيها العاص؟ أم هكذا تُصنع السين بلا طائل بين الطريق والصح جلي والمودج حي ما رالت آثار خطواته بين مكة والمدينة ترسم سبيلاً للدعاة عبر كل العصور؟

كانت الأسئلة تتقاطر على ذهن ابن ياسين والإجابات تقفر جلية واصحة لا عيش

المسيرة والمسار

تقع قبيلتنا جدالة ولتوة الصهاجيتان في الصحراء العربية عند التقاء جنوب المغرب بشمال موريتانيا، فلما عادها عبد الله بن ياسين وحيداً طريداً جريحاً سار مبهماً وجهه صوب الجنوب، لم يك وقتها يعرف إلى أين يذهب ولا كيف يكسب عيشه ولم يك في بيته أن يعود أدرجه إلى بلاد السوس ليقضي ما تبقى من عمره في تدريس الفقه المالكي عن ساحل المحيط الأطلسي كما كان يفعل قبل رحيله إلى الصحراء بصحة الأمير يحيى ابن إبراهيم مد خمسة عشر عاماً، إذ كيف يتأتى له بعد أن عاين نفسه وعاش طويلاً تلك الجاهلية التي أطبق ظلامها على قبائل صهاجة أن يقع بتدريس الأحكام الفقهية التي لا تصلح إلا لقوم اعتنقوا بالعمل الإسلام الصحيح ورضوا بأن يحضروا لأحكامه التي تُطبق عليهم وفقاً للاجتهادات الفقهية، وإلا لأصح الأمر مجرد عبث فكري لا طائل من ورائه أو إهداراً للوقت في بحث ومناقشة تفصيلات نظام يرفض الناس أصلاً الانضواء تحت سلطانه.

بعد سنوات طويلة من التجربة المريرة أدرك الداعية ابن ياسين أن مصارحة الناس بأنهم خرجوا بالفعل من ملة الإسلام ودعوتهم إلى العودة إليها مرة أخرى هي المهمة الوحيدة البقاء اليوم على عاتقه، وهي المهمة التي احتاره الرب سبحانه لإنجارتها داخل الصحراء وأنه لن يتحلل عنها حتى يعود نهار الحق فيشرق على هذه البقعة المظلمة التي تمتد فيها جدوره أو يهلك دون ذلك، لذا فقد قدته قدماء إلى السير عكس اتجاه الحصر واستقرار العماء شيئاً لا يجدد السير نحو الجنوب مسرعاً كأنه ليهرب من إعواءات الدعوة والراحة وخداع النفس... هناك...

(١) سورة عامر، آية ٦٠

فيها ولا عموص، ما اندي فعله رسول الله ﷺ والمؤمنون الأوائل في مكة حين كانوا قلة مستضعفة؟ لقد تشبثوا بدينهم. نعم «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(١)، ألم يك ذلك رد النبي ﷺ على قريش حين شكته إلى عمه قائلين لقد سمعوا أحلاما وسب آلهتنا وكفر آبائنا؟ لقد صمد النبي والدين معه فلم يهادنوا ولم يداهوا ولم يقصوا من حقيقة الإسلام بمقدار ما يرضي المكيبين ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^(٢) نعم.. بما تؤمر من ربك كله دون نقصان.

لكنهم في الوقت ذاته لم يشكوا في صراع مع قومهم وإنما امتثلوا لأمر الله تعالى لهم في تلك المرحلة التي يطلق فيها ظلام الجاهلية على المجتمع وتحتط الخفاف في أدهان الناس ويصنع للباطل قوة ويصنع المؤمنون برهم قلة قليلة مستضعفة ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾^(٣) نعم . كفوا أيديكم ولو أدرككم وقتلوكم وأخرجوكم، لماذا وما كانت حجة العرب القبلية لتقبل الصميم وتلقى الإهانة والإيذاء غير رد؟ كي لا يختلط الحق بالباطل في أدهان الناس ويدو الأمر كما لو أن السلطة الشرعية تردع قلة من الخارجين عليها أو المتصارعين معها على الحكم تطلعا منهم للسلطة لا لتطبيق شرع الله كما يدعون

لا مهادنة للجاهلية ولا مسالمة أو تعاون، ولا مواجهة أو صراع معها قبل اكتمال البناء، ذلك كان منهج الدعوة في المرحلة المكية حيث معطيات الواقع نشأه تلك التي وجهها ابن ياسين طوان الأعوام الماضية، وتلك المعطيات هي التي حددت منهج الدعوة الإسلامية عبر مسيرتها من استنصاف وانلاء وتمحيص إلى تمكين عن تخوف ثم تمكين عن قوة ثم انتشار في الأرض، لذا كان تحديد طبيعة المرحلة ضروريا ضرورة سلامة تشخيص المرض قبل تعاطي العلاج وهو ما أخطأ فيه الداعية فصيح أعوان طوالا بلا عائدة.

حين وصل ابن ياسين إلى أقصى جنوب موريتانيا بدا الطريق أمامه واصحا فعزم على إكمال المسيرة وتعديل المسار.

(١) السيرة النبوية لابن هشام - المجلد الثاني

(٢) سورة الحجر، آية ٩٤

(٣) سورة النساء، آية ٧٧

بين «أرتقني» و«دار الأرقم»

يفصل نهر السعال الواقع عند الساحل الإفريقي العربي - وفقا لعلماء الإثنوبولوجي - بين الحس الأبيض (البربري) على الضفة الشمالية والحس الأسود (الرتجي) على الضفة الجنوبية للنهر، ويرى البعض أن كلمة «سعال» هي تحريف لمعنى لكلمة «Asnaga» وأصلها «صهاجة»، ولعلنا ما زلنا نذكر أن الفاتحين المسلمين بعد استقرارهم في المغرب قبل ثلاثة قرون انجهموا شمالا لفتح الأندلس بدلا من الاتجاه جنوبا صوب السودان، لذا فإنه حتى هذه اللحظة التاريخية التي يعاينها كانت البلاد الواقعة إلى جنوب موريتانيا قائمة على ديانتها الوثنية لم تصلها الدعوة الإسلامية بعد، بينما خرجت قبائل انشمال الصهاجية عن ملة الإسلام متمسكة بشعاره الخارجي تاركة حقيقتها كما أوصحها سابقا، ترى أهدا السب توقفت مسيرة عبد الله بن ياسين عند هذه البقعة الجغرافية التي تفصل بين عالمين رتجي / بربري، وثني / مرتد؟ أنراه لذلك قرر أن يتحد مصب نهر السعال منطلقا جديدا لدعوته الإيمانية والحركة السياسية؟

عندما وصل ابن ياسين إلى مصب نهر السعال كانت المياه تتعرض لظاهرة الجمر فأدى ذلك إلى انحسارها عن جزء من اليابسة أشبه بالخريرة المحاطة بالماء من كل جانب إلا أنه - في ذلك الوقت - كان صحلا حتى يمكن الخوص فيه سيرا على الأقدام، وكأنها أدركت فحاسة الداعية أن تلك الخريرة المحاطة بالماء الذي سيعيصر عما قليل وفقا لظاهرة المد فيتركه وحيدا بداخلها هي خير ملاد للاحتلاء بالتمس والتزود بوقود التنسك والرهدة للارم للحركة الدعوية فأسرع باختيار الماء الصحل دافعا إلى الخريرة الصغيرة يحوطها ماء عذب لسقياء ولصيد الحر، وبأشجار قدست دون راع لطفه

ولدوده فسجد شاكراً لله ثم بدأ يستشعر ما في الخلوة مع الله من مذاق لا يعرفه إلا من ترود منه والنذبه، كانت جدائل الشمس الذهبية تتباين ألوانها تبايناً عند المغيب كاشمة عن قدرة الخالق العظيم جل جلاله تودع هازها بالاختباء بين ذراعي المحيط المعتدة عبر الأفق العربي، نعيم في قرارة نفسه من جحود الإنسان لخالفه وعدوله عن منهجه القويم الذي ارتضاه لعباده كي يتحرروا من أسر شهواتهم ومن عادة أمثالهم من العبيد الذين لا يملكون لأنفسهم مفعلاً ولا صبراً ولا يمتدنون سبيلاً كي يتسقوا مع فطرتهم ومع هذا الكون بديع التماثل لا يشوهه ولا يحل نظامه سوى ذلك المخلوق الخالد الذي يعاب ويسبب المعاناة لعبده من المخلوقات حين يحرف عن الصراط المستقيم إلى سبل متفرقة يتحيط فيها فلا يستقر ولا يثبت إلا بعودة إلى طريق الله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَحْيِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾^(١)

ما أبدع الحياة في معية الله، هكذا بدأ الداعية الأول ﷺ وحيداً متسكناً ليتروى بوقود الدعوة ﴿قُلْ أَتَيْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَوْفَّقْتُكُمْ فَيْلًا﴾^(٢) أورد عليه ورثي القرآن ترتيباً^(٣) إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ لَوْلَا فَيْلًا^(٤) إِنَّا بَشَرْنَا لَيْلًا مِنْ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً^(٥)، في ليل الخلاء حيث يحيم اهدوء ويسكن الكون كله تحت ظلام دامن تسطع الأنوار من فلوب موحدة بالله متعلقة به منتجة إليه لا تروم عنه بديلاً لا ترضى سواه رباً وإلهاً نشد المدد الذي يعيها عل وحشة الطريق وتكذيب المكذبين وإعراض المعرضين واستهزاء المستهزين وإيداء المجرمين ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ لَوْلَا فَيْلًا﴾^(٦) إنه الجهد الشاق من اللحظة الأولى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيْماً وَسَفَرًا قَاصِداً لَأَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَنْهُمْ الشُّعْءُ﴾^(٧)، وهي المواجهة القادمة لا محالة، لذا كان لا بد من ابتلاء الداعية القائد كي يحمل الدعوة. الحمل الثقيل . فأنى له أن يحملها قبل اجتياز الاختبار الإلهي؟ القائد القدوق هو اللسة الأولى في الساء ثم تأتي من بعد ذلك بقية أحجار الأساس.. قاعدة البناء التي لا يجوز التهاون في انتفاثها واختبار صلابتها مرة بعد أخرى.. التي لا يجوز الترحص في

(١) سورة طه، آية ١٢٤

(٢) سورة المزمل، آيات ٦-٢

(٣) سورة المزمل، آية ٥

(٤) سورة التوبة، آية ٤٢.

مكوناتها طمعاً في الكثرة العددية لكيلا يؤثر ذلك على متانة الأساس ثم تأتي سائر اللسات، التوسع الجاهري الذي يجوز الترحص في مواضعاته تبعاً لمرحلة الساء

ها هو القائد قد صهرته وأضجته تجربة دعوية طويلة قاسية ودامية، ولكن أين القاعدة الصلبة التي سيقوم عليها البناء؟ لقد انقص الجميع في الغربة الأولى انتقلت الدعوة من غار حراء إلى دار الأرقم من أبي الأرقم حيث كانت اللقاءات بين القائد المربي وطلائع الدعوة الخامات الصالحة المتقاة الأساس الصلب للناء عرس اليد الكريمة التي تلقت العقيدة من مع صاب وتمثلت لها حية في شخصية نموذجية أعدت للاقتداء، فأين تلك القاعدة في العربة الثانية؟ إنها العجلة والترحص في الانتقاء تلك التي أسفرت عن هزيمة ساحقة للجماعة أهل الحق وعن التماس في الحقائق وعن اذوار عن المهج لم تكن مدينة الجماعة وأرسي تطبيقاً سلباً لمودع دار الأرقم فقد كانت تستقبل كل الراعين في الانضمام للجماعة دون انتقاء ودون احتيار، لما أن جاءت الصرة الحقيقية حتى انقصوا مثل ما تجمعوا ولو استمع إليهم ابن ياسين لأغروه بمهادنة القوم ومدايحتهم والتعاون معهم ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾^(٨) متقع بينه وبينهم مساومة تخرج بدين الله عن حقيقته إلى صيغة ترضي الطرفين المتصارعين لكنها بأي حال لا ترضي الله ورسوله، ذاك هو الفرق بين مهج ومهج . بين الحبل الأول وجماعة أهل الحق.. بين دار الأرقم ومدينة أرتسي.

كلما أوغل الليل تلالاً أنوار اليقين داخل قلب ابن ياسين، أطلت القيام فلي أن حان وقت السحر جلس يستمع ربه ثم تساءل: أمس شال النهار أبدأ أم من الحوب؟ هاك يارب الداعي فأين المجيئون؟ تمثل بي الله إبراهيم ﷺ وحيداً في واد عبر دي ررع إد أمره ربه أن يؤذن في الناس بالحج فقال يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفدهم؟ فأوحى له الله: ناد وعليك البلاغ

تردد رجميع صوته في الحرية الصامتة مؤدناً في خشوع لصلاة لمجر: الله أكبر الله أكبر، وفي الأفق لاحت خمسة أشباح غائمة تحت السير في اتجاهه

(١) سورة العلم، آية ٩

الرباط

كان الرجل الخمسة قد خرجوا من ديار لتونة متعقبين آثار عبد الله بن ياسين، عاقدين العزم على ألا يعودوا إلا بصحته أو فليذهبوا معه حيث شاء، كانوا شباناً قوياً صالحاً من جماعة أهل الحق، صمدوا مع إمامهم حتى تفرقوا عنه بعد أن بلغ العصف والاضطهاد مداه، فلما أخرجهم القوم شعروا بالدم لتخليهم عنه وهو الذي أوقف حياته ليخرجهم وقومهم من الظلمات إلى النور، لذا فقد تعاهدوا فيما بينهم على اقتفاء أثره وبصرته ولو فقدوا أرواحهم في سبيل ذلك، فتركوا أمواتهم وأهلبيهم وخرجوا يمشون في ظلمة، وإدبهم وقد انداح الليل الطويل يسمعون صوته العذب الشفيف الحبيب يؤذن لصلاة العجر، تبادلوا الطرقات عبر مصدقين لكن صوت الإمام انطلق في سكون الجزيرة يدي، حي على الصلاة.. حي على العلاج.. فما عاد لديهم شك في أن الله هداهم إلى بعيتهم فحثوا السير بحره وقد لاح لهم على البعد شمساً غائماً قاتماً وحيداً في الخلاء... تلك الله يا ابن ياسين، أترفع الأذان في الخلاء حيث لا مخلوق يسمعك؟ لكلك يا إمامنا قد أسمعت سميحاً هليماً قادراً بلع بذاك إلبا بحر الخمسة الخارجين في سبيل الله وإلبا بحر المتلقين من وراء القرون تلك الومصة الساحرة كبريق ألماسة مريدة تزين عقد تاريخها المجيد.

وكم كانت فرحة اللقاء رطبة ندية فتعانقوا في فرح واستبشار وقد لاحت أولى تبشير النصر بتلك المحبة وبذلك الولاء الذي لا بد جامع بين القائد وقاعدة البناء اللبنيات الأولى

كان قد جمع بعضاً من أفرع الشجر اليابسات وقليلًا من القش الملقى هنا وهناك

فصنع منها ملجأ يقبه الحر هارًا والبرد ليلاً، واعتزم أن يكمله بما هو متاح من مواد الساء حتى يصنع منه رباطاً في سبيل الله أشبه بالأرطبة الإسلامية الشهيرة التي انتشرت على سواحل الشمال الإفريقي المطلة على البحر المتوسط لصدد عدوات البييريطيين ونلك التي أقامها أهل السنة بعد مذبحة المالكية على يد الشيعة العاطمية، وكانت ثقة «الرباط» قد أصبحت إحدى مفردات الثقافة المعنوية مد الفتوح الإسلامي حيث انتشرت على ثعور الشمال الإفريقي من الإسكندرية حتى المحيط الأطلسي لصدد المعيرين على بلاد المسلمين من جهة البحر، وفي التاريخ والتراث الشعبي المغربي ثبر حكايا أهم الأرطبة الإسلامية وأشهرها على الإطلاق: رباط عقبة بن نافع المهري في شمال القيروان، ثم رباط عبد الله بن ياسين.

والأصل اللغوي للرباط أنه لحام الخيل، لكنه أحد مصطلحات معنى يتسق مع الجهاد إذ يقول الله سبحانه: ﴿وَأَعِزُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْغَيْلِ﴾^(١) فعادها على الاستعداد لنقاء العدو بالتسليح، كما اتسع معناه ليشمل مجمل لعمل الجهادي فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(٢)، ويقول الرسول ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدب وما عليها»^(٣)، ومع أن المرباطة تتعلق بكافة أشكال الجهاد سواء على الثعور أو داخل المدن فإنها ارتبطت أكثر بأعمال الحماية التي يتولاها الجود على الثعور الساحلية المهددة بالغزو البحري الذي لم يكن العاصمون الأولون من المسلمين قد أجادوا فنونه بعد، وبمرور الزمن أحد الرباط معنى أوسع إذ شمل إلى جانب الأعمال العسكرية أنشطة تعبدية وثقافية واجتماعية خاصة إبان اضطهاد العاطميين لعلماء السنة إذ فر من بقي منهم بعد المذابح على قيد الحياة إلى الثعور، وأنشأوا بها عدة مدارس فقهية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي أطلقوا على كل منها «رباط»، وأهمها رباط القيروان ورباط سوسة ورباط ماست وهو رباط وجاح بن رلوا الذي وعد إليه من الصحراء عبد الله بن ياسين وتعلم فيه بشكل

(١) سورة الأمل، آية ٦٠

(٢) سورة آل عمران، آية ٢٠٠

(٣) مصحح عليه، عن سهل بن سعد

نظامه الداخلي أحد المكونات الثقافية التي واكبت خطواته لإعادة القبائل البربرية إلى الإسلام.

أحد الرجال خمسة يعملون مع ابن ياسين لإكمال ساء الرباط الذي سيصممهم جميعاً ليستكملوا ما بدأوه في «أرتسي» وليتلقوا العلم الشرعي عن إمامهم في إطار تطبيق حارم لشرع الله عن كل تفاصيل حياتهم، وقد بدأ لهم الأمر وكأنهم يولدون من جديد، وحرص ابن ياسين على تأكيد هذا المعنى وهو يعلمهم آيات الله وسنة رسوله ﷺ فيتعمق لديهم الشعور بأنهم يعيشون التجربة الإسلامية الأولى حية طارحة، وأريد هذا قبل أن أسنطر في بيان نظام المراقبة عند ابن ياسين. أن ألقى الضوء على أمر شديد الأهمية، وهو ذلك الخطأ الذي وقع فيه من تناولوا بالبحث تلك المرحلة التاريخية، إذ يكاد الباحثون يجمعون على أب الرباط شأ عام ٤٣٣هـ والحقيقة أن ابن ياسين دخل حريرة سهر السعال التي أشأها رباطه بعد حروجه من لمتونة أي عام ٤٤٣هـ أما من يُقر من المؤرخين بأن تاريخ بناء الرباط هو عام ٤٤٣هـ فإنه يذهب إلى أنه بناء في ديار لمتونة بمساعدة أميرها يحيى بن عمر، وهذا الالتباس الشديد الذي يحيط بواقعة شأ الرباط يرجع في رأيي إلى عدم الإلمام بصحح دعوة ابن ياسين الذي أدى إلى الخطأ بين مرحلة لمتونة وساء «أرتسي» وبين مرحلة مصب سهر السعال وساء الرباط، واختلاف المصحح هو الذي يحدد تاريخ البداية، وإذا كان مذهبنا أن يطلق البعض عن «أرتسي» اسم الرباط - رغم أن هذا غير صحيح - فإن معالم نظام المراقبة عند ابن ياسين لم تتبلور إلا ببناء الرباط الحقيقي على مصب سهر السعال والذي أقامه ابن ياسين منفرداً ثم استكماله بمعاونة أتباعه الخمسة الأوائل في عام ٤٤٣هـ الموافق ١٠٥١م

والحقيقة أن تلك الصيغة العبقريّة التي مرّح فيها ابن ياسين بين فلسفتي «دار الأرقم» و«الرباط» هي جوهر دعوة عبد الله بن ياسين، فلقد كانت محصنة الفترة الطويلة التي قصها في الدعوة خلال مرحلتي جدالة ثم لمتونة والتي امتدت لسبع وخمسة عشر عاماً وسهت مرصيد يكاد يعترف من الصغر قد أفصت به إلى مراجعة المصحح كما ذكرنا هذا مرحلة الرباط بمصحح سليم مستمد من سيره رسول الله ﷺ ومستند إلى فقه المرحلة، وقد طوق هذا المصحح مد نقطة البداية، أي مد مرحلة اختيار لبنات الأساس

المرباطون

تحدد ملامح الفقيه المجتهد المجدد وفقاً لعدة عوامل؛ منها مواهب ذاتية ومعطيات شخصية، ومنها إخلاص في توحيد الله وطاقته وعادته، ومنها علم شرعي واسع ومنعمق، ومنها أيضاً - وهو أمر شديد الأهمية - معرفة بالواقع ومعايشة له، بل ومعاينة معه أيضاً لكيلا يصحح لفقيه مجرد دار كتب متمدة بحمل في رأسه فكراً نظرياً جامداً متحجراً لا صلة له بالحياة، وقد أوتي الفقيه العالم العامل عبد الله بن ياسين من كل عناصر الاجتهاد رزقاً وعبيراً، ومثلت تجربته لدعوية الأولى بكل معاناتها وإحباطاتها راداً لثمنه في فقه الواقع وفقه المرحلة وفقه حركة الدعوية، ذلك أنه كان صدقاً مع ربه ومع نفسه في تقييم التجربة، وفي الاعتراف بالخطأ دون أن يكون خط نفسه نصيب مما كانت يعيته سوى الله والله وحده. لذلك رزقه الله من السداد والتوفيق ما يبرق عباده الصادقين.

وقد تجلّت عمق تجربة ابن ياسين كمعبر مجتهد في إدراكه لحقيقة مؤداه أنه على الرغم من حروح قبائل الصحراء مد ما يقرب من قرن من الزمان عن الإسلام بالكلية وعودتها إلى جاهليتها، وأن أفرادها لذلك يعدون من المشركين من ذرية من ارتدوا عن دين الله الحق، فإن الحكم عليهم بذلك بما يستتبعه من أحكام فقهية لا يجوز أن يُلقى على حواهنه لأن هناك فارقاً جوهرياً بين حال مشركي قريش عند البعثة النبوية وحال مشركي صحبة اليوم الذين نقي معهم بعض إسلام - ولو كان مجرد الانتباه به من الناحية الاسمية - رغم جاهليتهم، كما أن هناك فارقاً هاماً بين الحكم على فرد أو على مجموعة من الأفراد بالردة وفقاً لصوابط شرعية محددة وما يستتبعه ذلك من أحكام وبين أن

يسلح شعب أو شعوب بأكملها عن الإسلام حتى يعض عراه ونحرج منه وهي بطر نفسها داخله، فحكم الشرعي يختلف وأسلوب الدعوة يختلف بالتالي، لذلك أسس ابن ياسين نظام مرابطته على المرج بين هذه المرحلة المكية للدعوة - دار الأرقم - وفقه المرحلة المدنية المتكيفة مع الواقع - الرباط - فجاء هذا النظام واصتخاراً نقداً مستنداً إلى الواقع ومتفاعلاً معه متميزاً بآثران العلماء العظماء ووقوفهم بين حرط الفكر الخارجى الذي أرقى تربية بصوضاء الفتن وتمريط الفكر الإرجاني الذي أسدنه للموت

صاح ابن ياسين من رباطه على مصب نهر السعال قاعدة للانطلاق الدعوي بدأت بأمر حال الخمسة الأوائل الذين قصوا معه فترة طويلة في تنقي العلم ومراجعة التطبيق ثم انطلقوا واحداً إثر الآخر عائدِينَ إلى لمتونة وإلى جدالة وجرولة وغيرها من القبائل الصنهاجية ليقوموا بمهمة الدعوة داخلها بشكل سري هادئ وبدون مواجهة مع السلطات القائمة على سبق أقرب لمرحلة الدعوة الأولى في مكة لاستقطاب مؤمنين جدد وضمهم إلى جماعة الرباط، وهنا نرى ابن ياسين - مستفيداً من تجربة «أرننتي» - يرفض الترحص في قبول المرشحين للالتحاق برباطه واصفاً شروطاً شديدة الصرامة بذلك استبطنها بجتهاده الذي حقق له مرحاً يشد الكعب في بوعية عاصر قاعدة الساء الأولى التي أرادها صلوة شديدة الصلاة كي لا تنكسر أمام المحر ولكي تصيح لإقامة الساء عليها فيما بعد، فقرر مبدأ لم يعلم له مثيلاً وهو «مبدأ التوبة والتطهر» يقضي بأن يقوم الوافد الجديد - بعد مقابلته للإمام وقبوله له من الناحية المدنية - بالتطهر من دونه التي ارتكها قبل انضمامه للرباط وذلك بأن يقر بها طائناً توقيع الحد الشرعي عليه إن كنت من دواب الحدود أو توقيع عقوبة تعزيرية وصعها ابن ياسين في لائحة خاصة تصممت بنظام الرباط مناسبة لذلك الدس، تلك هي الخطوة الأولى

تأتي بعد ذلك دورة دراسية حادة من حفظ للقران الكريم وللسنة السوية المطهرة ونعلم أحكامها وتطبيق ذلك على حياة الوافد الجديد في كل صغيرة وكبيرة، وبرنامج معدي كامل يشمل الفروض والواهل بشكل يكاد يقرب من تلك التي عرست على لمسين الأوائل في مكة من قيام طويل بالليل وصيام دائم بالنهار، وبرنامج عمل شاق يقوم فيه أعضاء الرباط بأعمال الرراعة والرعي والنصيد والغزل والإنشاء تحفيقاً للاكتفاء انداتي في كل بواحي الحية، وإلى ذلك كله تدرسات رياضية وعسكرية مكثفة تحب رقانة

صارمة من انما لا سهون مع الأخطاء ولا تتر حص مع لسات الأساس ولا تستهدف حشداً جماهيرياً معبر ما تستهدف استعاء واعباء، أو فاسل متشدة، وكما يتفهي الساء الماهر لساته الأولى بعناية فائقة فيسحب الصلص منها ويُنحي العامل للكسر تحت المطارق حتى يحين موعد انتحايه، كذلك فعل ابن ياسين فطعن يطرد من الرباط كل من يستشعر فيه ضعف أو نهاوياً أو رخاوة كيلا تتثقل عدوى رخاوته إلى الآخرين

ومع كل هذا التشدد في الاحتيار وفي تطبيق النظام داخل الرباط فقد استعرت زيادة المرابطين في اطراد عجيب، ففي الشهور الأولى عاد كل رجل من الرجال الخمسة برجل آخر ثم برجلين ثم بأسر كاملة فتوسع الرباط من ساء واحد إلى عدة أسية أقيم بعضها على سبق الساء الأول من أفرع الشجر والقش وبعضها الآخر من قماش اخيم ليصم الساء اللواتي وقدن إلى الرباط مؤمات مجاهدات رصيات بالخصوع بشرع الله في مهجرهن الحديد الذي فررن إليه بديهن من جاهلية ظالمة ظلمهن، وما مرت أعوام ثلاثة حتى بلغ عدد المرابطين ما يقرب من خمسين مرابط ومرابطة كنهم مسلم مؤمن بمحمد عابد عالم متشوق للجهاد في سبيل الله، وكلهم مهياً لتطبيق نظام المرابطة الشاق العسير، وكلهم محب لفائده وإخوانه في الرباط، وكلهم ملتزم بالنسج وانطاعة سواء للإمام لقائد أو للأمراء الذين عيهم ابن ياسين بعدما قسم أعصاء الرباط إلى مجموعات صغيرة كي يسهل تنظيمهم وتوصيل العلم إليهم عن طريق الأولين الذين حصو احتشاً تلو احتشار حددت نيتجتها مكانتهم داخل الرباط.

وبعد مرور أربعة أعوام من خروج ابن ياسين وحيداً طريقة من لمتونة تحدث الواقعة التي تعد مغلياً هاماً في مشوار الدعوة الإسلامية داخل الصحراء والتي هيأت لانتفاها من مرحلة إلى مرحلة، ففي صباح أحد الأيام يستأذن رجل في الدحول عن ابن ياسين فلما أدل له إده هو واحد من رجاله بصحبته يحيى بن عمر أحد أمراء لمتونة الأقوياء جاء ليعلى انضمامه ومن تبعه من أفراد القبيلة إلى رباط ابن ياسين ودخوله في طاعة الإمام

الفا حل إلى حبه ورعه^{١٤} ترى أهدا الكريم كان موفق الرب سبحانه للأمير الخاج يحيى
ابن إبراهيم الخدالي كي يصطحب ابن ياسين لشر الدعوة الإسلامية في الصحراء،
ونوصفه للأمير المجاهد يحيى بن عمر للمتوب كي يصبح بدعيه وبعيلته إلى المرابطين
قوة تمكن لدين الله على تلك المساحة الشاسعة من أرض الله^{١٥}

ما إن قدر ابن ياسين أن المرابطين لن يُعبدوا من قنة بعد أن يدع عددهم ألف أكثرهم
من ذلك الفرع الأول الصلب الذي انتحبه الإمام ورثه على عييه حتى اجتمع بهم
محطت فيهم ودعاهم إلى الخروج لدعوة قبائل الصحراء إلى العودة إلى دين الله الحق
ورغبهم في الجهاد في سبيل الله وذكرهم بأخوة وممرات الشهداء فقالوا له «أيها الشيخ
المبارك، مُرنا بما شئت نجهدا سامعين مطيعين. ولو أمرتنا بقتل آبائنا فعلى»، ها أيضاً
ابن ياسين أن العرس الرباني قد أتى ثماره فقال لهم «أحرخوا! أنذروا قومكم فإن تلووا
فحلوا عنهم وإن أبوا جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

وهكذا بدأ خروج المرابطين فرادى وجماعات من مصب نهر السبعال عام ٤٤٧ هـ
الموافق ١٠٥٥ م متوجهين بدعوتهم إلى قبائل الصحراء، وبدأت حطرات عودة الإسلام
من بعد عربته الثانية بالوعظ والإنداز، فمن الناس من استجاب ومنهم من أعرض،
فمن استجاب التحق بجماعة المرابطين كمرمر ثان جاء أوان قبوله في الساء، ثم خرج ابن
ياسين بنفسه فعقد مؤتمراً عاماً لروساء القبائل دعاهم فيه إلى العودة إلى الإسلام وتطبيق
شرائعه كما أمرهم الله تعالى، ثم أمهدهم سبعة أيام فلما لم يجد منهم سوى الإعراس
والتلكؤ ومحاولات الانتعاف والتملص بدأ يعزو بحيشه القبائل لفسط السطرات
السياسة القبيصة على أمة الحكم وليحلي بين الناس ودين الله، بدأ بقبيلة حدادة المهدي
الأول لدعوته ثم أحصع لمتونة وبعدها موفقة، وخلال عام واحد وبعد معارك شاقة
أنت فيها المسلمون قوتهم وعريمتهم وحرصهم على الشهادة حصعت قبائل صنهاجة
الصحراء لدعوة المرابطين فابعوا ابن ياسين على تجديد إسلامهم وعلى التوبة والتطهر
وعلى إقامة أحكام الكتاب والسنة، ومن ثم بدأ دحول الناس في دين الله من جديد
وتوالى قبول الفرع الثالث، وهو ذلك الصنف من الناس الذي يؤمن بالإسلام ويرضى
بشريعته لكنه لا يقوى على نصرته حال الاستعصاف، وهؤلاء يكتمون هم الساء. لكنه
لا يقوى بهم من ضعف ولا يتصر بهم من هزيمة.

جهاد واستشهاد

أعصر طريق بين معطين هو الخط المستقيم ذلك أيضاً في هدسة التريخ وهكذا
يحقق لاس ياسين في أربعة أعوام فقط من الدعوة وفق مسيح رباني قويم مرتكر على فقه
لمرحلة ما م يحقق به خلال خمسة عشر عاماً من المحط عبر المدرس ومن الاحتفاء
بالكثرة العددية دون نظر لعودة الوعية أو لتناسب بين صلاة الكورس ومشقة الطريق،
هكذا تأتي - عن محل ودون استعجال - نقطة التحول من استعصاف إلى تمكين ومن
انتقاء لمناصر صلبة متفردة إلى ترخص في لقبول محسوب ومن مرابطة وكف للأيدي
إلى دعوة حميرية وجهاد عندما نشأ بدعيه أمير لثونة سلطنة سياسية موازية للسلطات
السياسية الخاهدية القائمة في الصحراء فتصبح المواجهة بين نظامين سياسيين كما حدث
بعدما نشأ في المدينة المورة نظام سياسي بقيادة رسول الله ﷺ فأنهت بذلك مرحلة
«كُفُوا أَيْدِيَكُمْ»^{١٦} وبدأت مرحلة «وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُوا لِيْلِينَ بِلَهُ»^{١٧}

ويحسني ها معنى مرتبط بهد الاسم الكريم «يحيى» الذي كان أول من تسمى به
على وجه الأرض سي كريم ابن نبي كريم ساء ربه ولم يسمه والداه «يَتَوَكَّرِيْنَا إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا»^{١٨}، ترى أهدا الكريم يبرع من
بين ظلمات الصحراء رجلاً يحملان الاسم ذاته يقص كل منهما على زمام المبادرة
التي تدفع بقاعدة اتوحيدي في طريقها لشر بور لرب تبارك اسمه ولتحيل ذلك الحدث

(١) سورة الساء، به ٧٧

(٢) سورة البقرة، آية ١٩٣

(٣) سورة مريم، آية ٧

وفي العام دته اجتمع عداءه سحلية ودرعة الواقعين إلى جنوب شرق المغرب الأقصى وقرروا أن يكتسوا لاس ياسين داعين إياه لسليصهم من جور سلطان المعروية الراتية ويدعهم وصلاتهم فأحدث دعوتهم وتمكن من هزيمة المعروية الحاكمين وأصلح أحوال البلاد وولّى عليها من المرابطين، وفي طريق عودته إلى الصحراء توفي الأمير يحيى بن عمر المستوف بعد أن قدم خلال الفترة القصيرة التي التحق فيها بحدود الله المرابطين خدمات جليلة للإسلام فعلى ابن ياسين أخاه أبي بكر بن عمر قيادة الجيش مكبه لكي تستمر رحمة المرابطين في بلاد المغرب من مصر إلى مصر ولكي تنهي عصر لتشر دم المافص لطبيعة الإسلام فتوحد بلاد المغرب كلها تحت راية واحدة

كان هدف توحيد بلاد المغرب تحت الراية الإسلامية والقضاء على بقول الطوائف الكفرية والدعية وأصحاء أمم ابن ياسين وهو يتجه بجيشه إلى الشمال الغربي لمقاتلة لطائفة الرعوية التي أهدمت دولتها الكفرة على إقليم تلمست منذ عام ١٢٥ هـ أي في خلافة هشام بن عبد الملك بعدما اجتمعت على رجل اسمه صالح بن طريف رعموا أنه مهدي المنظر وأشأ لهم ديناً حبيطاً من الشريعة الإسلامية والشريعة الدعية والوثنية وتوهموا دولة قوية أهكك حكام المغرب المتعاقبين على مدى ثلاثة قرون وأحدثت الفتن ولصحت صغحات لتدريج المغاربة وألحقت امراهم بالخيوش الطامية وكادت أحد أسات تفتت لمغرب حتى استشر عبد الله بن ياسين فواد جيشه فهدوه عن فهاهم حتى آخر حندي منهم فسد إليهم عام ٤٥٠ هـ وخرت بين الطرفين معارك حامية أصب خلافاً ابداعية الرباني عبد الله بن ياسين بجرح قتل محمله جنوده إلى المعسكر وهم في شدة آخر على إمامهم ورعمهم وقائد مسيرتهم، إلا أن ابن ياسين كان يتطلع بشوق إلى لقاء ربه وإلى مرتبة الشهداء فلبت إبتهم قبل أن يسلم الروح وأوصاهم بتقوى الله ولاعتصام بحبله وبأن تتوحد كلمتهم حلف من يختارونه لإكمال المسيرة

وهكذا مضى الإمام الفقه العالم عبد الله بن ياسين من دار العمل إلى دار الخراء رحمه الله بها قدم للإسلام وللمسلمين وأخفه بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولقد اجتمعت كلمة المرابطين على أبي بكر بن عمر ليحمل الراية من بعده.

دولة المرابطين

لقي عبد الله بن ياسين ربه في شهر جمادى الأولى عام ٤٥١ هـ الموافق ليوينية ١٠٥٩ م بعدما أصابه حرج قاتل أثناء جهاده الطائفة الرعوية المرتدة فأدى آخر قلوب المجاهدين، بينما عم الفرح صفوف الرعواطين وظنوا أن النصر سيكون حليصهم بعدما تششت جهود المرابطين بمقتل زعيمهم، إلا أن هؤلاء وقد اجتمعوا على اختيار أبي بكر بن عمر المستوف حليفاً للإمام الراحل فقد التفتوا حوله دون تلكؤ فتمكن خلال فترة قصيرة من إعادة تعنته الجيش المجاهد ووضع ابن عمه المقاتل الشجاع يوسف بن ناشين على ميمة الجيش - في أول ظهور له على مسرح الأحداث - ثم أعاد الكرة هاتفاً العزم على استتصال شأفة هذه الطائفة الكفرية التي استولت على بلاد السوس الأقصى ونشرت الفساد في ربوع المغرب طوال ثلاثة قرون كاملة.

وفي خلال عام واحد تمكنت الفقة القيمة لمؤمة الصبرة من المرابطين - ألف مقاتل - من هزيمة الفقة الكثيرة المرتدة - ألف عشر ألف مقاتل - ومن انقضاء تماماً على الدولة الرعوية وفتح عاصمتها «أعيت» في سفيح جبل المصامدة بالسوس الأقصى ونجدها قاعدة للجيش المرابطي يطلق منها لتحرير بلاد المغرب وتوحيدها ولقضاء على حكم لطوائفها ما بين مرتدة ومسدعه ومتصارعه على الحكم ولو أدى ذلك إلى تمزيق البلاد، وبعد مقتل أمير أعيت لقوط بن يوسف أعلن الرعواطيون عودتهم إلى دين الإسلام الحق وولاءهم للمجاهدين، وكذا فعلت ربب لفراتة روجة لقوط وأجل مساء عصرها فتر وجهها للأمير أبو بكر بن عمر، وكان هذا دور كبير في دولة المرابطين كما سنرى.

كان الإمام عبد الله بن ياسين ومن معه من المرابطين الأولين قد بدأوا في إرساء القواعد التأسيسية لدولتهم بمجرد انتهاء مرحلة الاستصعاف ونشوء سلطة سياسية في الرباط، تلك الدولة الوليدة القائمة على أحكام الإسلام كما تصورها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم الاجتهاد وفقاً لمذهب أهل السنة والجماعة من المانكية وهو ما يمكن أن يطلق عليه بلغة العصر «الدستور» الذي توافق الناس على الخضوع له، ثم كان لهذه الدولة الناشئة جهاز إداري مناسب لتلك المرحلة المبكرة وبيت مال وحيش مسلح ومدرب له حطط مدروسة، وقد تطورت النظم الإدارية لدولة المرابطين بالتوازي مع خطوات توسعها خارج الصحراء بدءاً من فتح درعة وسجلماسة ثم أودغست الرمانية وتامسنا وأعمات وسائر بلاد السوس الأقصى، وفي تلك المرحلة أصبحت أعمات عاصمة الدولة المرابطية وأبو بكر بن عمر اللمتوني أميرها ويوسف بن تاشفين قائد جيوشها التي توسعت بنحراط لربير الرمانية في صومها بعد أن كانت قصرة على بربر الصحراء مما أدى إلى تطور حصري ملموس يتجلى امتزاج الثقافات الإنسانية ثم «صهرها» في بوتقة وحدة يحكمها نظم قانوني يتميز بالعدالة والمرونة وبالقدرة على استيعاب العناصر المكونة لهذا الكيان الماسك وتطعيم حركتها، وأي نظم أفضل من ذلك الذي مرصه صانع الكون سبحانه لكي يحكم حركة صنعته؟!

وفي عام ٤٥٣ هـ يتوفى المرزوق باديس أعظم ملوك القيروان فتهاوى بوقائه دولة سي ريري لصهاجية في الشمال الإفريقي الذي يشمرق إلى دويلات تحكمها أسر بربرية أمهكتها الحروب التي أشعلتها لدولة الفاطمية بعد رحيلها من المغرب واستيلائها على مصر بدفعها لقبائل سي هلال وسي سليم العربية إلى المهجرة في أفواج متلاحقة من منطقة شرق النيل إلى شمال إفريقيا في محاولة لإدلال الربير ولزرع بذور الصراع العرقي والبطاني لتي أنتت نقائلاً على السلطة وعلى الموارد المحدودة، واستمر مسلسل الحروب الأهلية البربرية التي غرّبت المعالم الحضارية للمنطقة ودمرت القيروان، تلك الحروب التي أحبطت في السيرة الشعبية بفعل التأثير الثقافي الفاطمي سيّاح من البطولات للحمية الرائجة لطمس الحقائق وإلهاة المسلمين عن الإطلام الذي استهدف الصفحات الحقيقية والمصينة في تاريخهم، فقدمت أحداث تلك الفترة مسألاً إضافياً إلى ما سبق أن ذكرناه من أسباب الانقسام السياسي ونشوء نظام للطوائف على غرار ما عرفته الأندلس في فترة معاوية، لذا فقد بدأ هدف المرابطين واضحاً ومحددًا بعد توحيد قبائل

الصحراء ثم مصغه السوس الأقصى وهو الاتجاه شمالاً نحو وحد سائر الدويلات تحت راية سياسية إسلامية واحدة، ومن ثم بدأ إعداد الجيوش لاستكمال الفتح في شمال المغرب، وفي هذا الوقت وصلت الأخبار من جنوب الصحراء بأن نزاعاً قد نشب بين القبائل.

ذلك أن المرزوق الثالث ثم الرابع من لانت اساء - انداحس في الإسلام بعد تصوره؛ وهم أشبه بمسلمي الفتح - قد بدأوا بعدما فتح الله على المرابطين وطعنوا إلى دحولهم في صومها اختاب المتصير في التماس على المكاسب الدنيوية لتي لا شك آتية مع تطبيق أحكام الإسلام ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَقْبَلُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) فشب نزاع بين قبيلتي جدالة وملتوية، كل منهما تطمح إلى الرعامة وإلى المكاسب المادية المترتبة على ذلك، وبينما تستند جدالة إلى أن الحركة الإسلامية بدأت عن أرضها تمنح لمنوبة باب سبب التمكين وبأن أمير المرابطين منها، وهكذا حل هذا الصنف من الناس لا يصرون الإسلام في عرته فرداً ما نصره الله بالعطافة المؤمنة، القاضية على جدار الحق أمرعوا ليعلموا ولاهم ويطالبوا بصيبيهم من عائم النصر، ولعد كان الأمر إلى لتصور أن يرسل لأمير بو بكر بن عمر نصر من عبيد المرابطين وهرقة من الخوذة لإصلاح ذات البين وتناديب الخرجين على النظام، لكنه وهو التقى المجاهد الذي انصم مع أحبه إلى رباط ابن ياسين فتعلم على يديه أن قوة المسلمين في وحدتهم اختر أن يذهب نفسه إلى الصحراء لإصلاح ما أسدته أطباع الدنيا فولى مكره ابن عمه قائد الجيوش يوسف بن تاشفين ثم اصطحب فرقة من الخوذة ومصى نحو الجنوب.

تمكّن الأمير أبو بكر بن عمر من تسوية النزاع الناشب بين قبيلتي جدالة وملتوية وأصبى شهوراً في ترسيخ مبادئ الأخوة والوحدة الإسلامية لدى لقائهم لصهاجية، إلا أن المعاجاة كانت بعد أن عاد الأمير إلى أعمات وقد أصمر في نفسه أمراً عجيباً لم يعرف له مثيلاً في التاريخ الإنساني ولا تصور وجوده إلا لدى ذلك النوع من البشر الذين استبقوا أن الدنيا ما هي إلا مررعة للأخرة فيمضوا وجوههم أيها وجدوا الأرض مهياً للغراس.

(١) سورة الأعراف آية ٩٦

واحد من أسباب اسراع الناشئ بين قبائل جنوب الصحراء سمى جيش المراتبين يطلق نحو الشمال مباشرةً بمرور الإسلام الحق في أرجاء المغرب كان اتفاس بينها على أوثنية ومكاسب لمخارة مع أقاليم السودان وهو تافس عرفته القبائل البربرية ضد قديم الرمان مع تشكك العلاقات التجارية بينها وبين تلك الأقاليم كما ذكرنا سابقاً، فلما مكث الأمير أبو بكر بن عمر شهوراً في الإصلاح بين الناس وفي إرساء قواعد الوحدة الإسلامية تفتت معه وهو هاش في الحبوب بالقرب من موقع دباط ابن ياسين إلى نوع آخر من التجارة للربح دوساً أية احتمالات لمخارة فعقد «لعمري» على أن يتارل عن إمارة المراتبين ويترك أعمامه ثم يعود إلى حيث مطلق هذه التجارة الربحية، بدأ عادر الأمير الصحراء لمرته مؤقتة ريثما يرتب أحول اندوة الوليدة ثم يعود، فتوجه مسرعاً صوب أعمامه وصدي تراثيل قدمته يتردد في حواشيه فصرقه عن كل ما في الحبة سوى هذه لبهجة البورانية التي عمروت كياه بإشرافه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ خَيْرٍ مِّمَّا تَصْنَعُونَ﴾ (١) ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤْتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) يغير لكم دؤوبكم ويبدل لكم حسنكم بغيري من تحبها الأنهر ومسكن طينة في حبس عذري ذلك الفوز العظيم﴾ (٣)، حين وصلت فافلته إلى أعمامه كاتب روحه قد بلغت من الشفافية ما يكاد المستقبل يكشف أممها فيظهر واضحا جلت، قد كان أول لقاء له مع زوجته ريس.

كانت ريس ب إسحاق المرأوية - أو السب ريس كما يطلقون عليها - تنتظر عوده روجح الأمير من رحلته في الصحراء فإذا به يعاينها بأنه عقد العزم على التارل عن مصب الإمارة والرحيل من بلاد السوس إلى انصحراء ليحعلها مطلقه إلى بلاد السودان الواقعة أسفل مصب نهر لسعان للدعوة والجهاد بين قبائلها التي ما زالت حتى ذلك الوقت على وثنيته القديمة لم تصلها الدعوة الإسلامية بعد، وأنه لذلك يريد أن يطفئها - وهما يروى قدامى المؤرخين كاس عدارى ومن أبي ررع أنه قال لها «يا ريس إنك ذات حسن وجمال فائق، وري صائر إلى الصحراء ترسم الجهاد لعل أروق بالشهادة، وأنت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء، وري مطلقك فإن أتممت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو حبيبتني على بلاد المغرب».

ثم جاءت الخطوة التالية وهي استدعاء يوسف بن تاشفين في حضور كبار رحال اندولة المراتبية ليشهدهم أنه قد جلع نفسه من الإمارة وتارل عنها لاس عمه قائد الخيوش الذي عرفه الناس بالثقوى والورع وسداد الرأي والعدل والشجاعة، ثم قال له فيما يذكر المؤرخون «يا يوسف إني قد ولينك هذا الأمر وإني مستول عنه فائق الله في المسلمين وأعطني وأعتق نفسك من النار ولا تصيح من أمر رعيتك شيئاً منك مستول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفيك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو حبيبتني عليك وعليهم»، ثم خرج معادراً إلى الصحراء وسار معه يوسف مشيقاً فأخبره أنه طلق ريس وبصحه ما رواع منها قنلاً له «تزوجها فإن امرأة مسعودة!» فلما حل إذا الحديث عن تلك السعادة التي بشر بها ابن عمه إن هو تروح مطلقته ريس، ولم تحل قنلاً مع الأمير الورع لمر هذا المجاهد أبي بكر بن عمر اللحنوي الذي ترك المعص والسلطان وامرأة «عائمة الحال» «المسعودة» على حد تعبيره جرياً وراء تجارة بن تاور

ويستوقعها أن أما بكر احتار يوسف بن تاشفين للإمارة بدلاً من به إبراهيم رغم ما عُرِف عن هذا الأخير من عقل وشجاعة، لكنه حذر الأفضل لقيادة الدولة واحتار لانه الليل الأفضل باصطحابه معه في رحلة الدعوة والجهاد التي مرت عبر سدجامة بداية الطريق الإمبريقي بعد أن منح في إعاده بأهل وبوحيه لعصب القناني ليصبح عصه لله وحمة لشرب ديه الحق في تلك الربوع لإفريقية المترعة بالوثنية وبالجهالة

وباطلم وبالتحلف وبافساد، حتى لروى الرحالة والمؤرخون المعاصرون ثلث المعمر من عجائب العادات الاجتماعية ما تنقرر منه النفوس، ويكفي أن تعلم أنهم كانوا يرحلون إلى الطرقات رجالاً وساء وقد كشفوا عن أعصابهم السلية ثم يتباهون بتربيتها واستعراضها، وقد كانوا لجهلهم لا يعرفون قيمة ما يملكون من ثروات طيبة أهمها لذهب الذي كانوا يبيعونه للبربر مقابل المدح لصحري المسترح من الصحراء في الوقت الذي كانت ترتحل فيه الأسر الفقيرة في قوافل إلى المغرب حيث أكثر سوق عالمي لتجارة العبيد لتبيع بعض أسانها مقابل اندر اليسير من الطعام ومن الصنائع النخعة، ولقد تمشى فيهم الطلم الاجتماعي إلى درجة لا توصف فدمعتهم العبودية وأدلتهم في جملهم وترحالهم.

وهكذا بدأت خطوات الدعوة بين القبائل الوثنية جنوب موريتانيا وفي السنغال ثم باتجاه غانة القديمة التي تمكنت الآن إلى عدة دول إفريقية، وقد سارت سياسة الفتح المراتبية في بلاد السودان العربي على النهج الذي استنه العاتقون الأولون بدءاً بالدعوة السلمية وصم من يديه الله للإسلام إلى صفوف المجاهدين، ثم مواجعة القوى الخاهلية الطلامية التي تتعارض مصاحها لصيقة مع تطبيق الإعلان العالمي لتحرير البشر من عبودية كل شيء وكل أحد إلا خالق الكون حل حاله، ولأن هذه القوى لا يمكنها أن تعيش وتتحرك وتتمو إلا في لطلام فهي تواحه البور القدم بكل ما تملك من بطش لتطفئه فيصبح الجهد ضرورة حتمية ليشم الله بوره رعم أنوعهم، وما تمضي سنة الله في حلمه فيبصر الله الفئة القليلة المؤمنة ويدخل الدس في دين الله أفواخاً بعدما تحرر إر دتهم بتصحيات المجاهدين واشهداء العاتقين الذين صحو بأرواحهم في سبيل الله وبشر ديبه الحق، ولقد فعدها أبو بكر من عمر هل تذكر كلماته لربيب وهو يودعها قنلاً «لعل أرزق بالشهادة»، فباله من رزق طيب وفير لا ينقطع، وبها لها من تجارة رابحة عر وعثم من وعاما وذلل وخسر من ضيعها.

في تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين يُعد جيشه للانطلاق شهالاً لتوحيد بلاد المغرب تحت راية واحدة، لكنه استهل ولايته بإنشاء مدينة جديدة لصح عاصمة الدولة بدلاً من أعمات، ولقد اختر مكان عاصمته الجديدة «مراكش» ساء على مشورة الست زينب، فكيف تم ذلك وماذا يعني اسم مراكش؟

موروكاش.. موروكاش

بدأ التفكير في ساء عاصمة جديدة للدولة المراتبية بدلاً من أعمات التي صاقت سكها من قبل أن يتارل أبو بكر من عمر عن الإمارة ويرتحل إلى الصحراء، ومن ثم اتجه البحث عن مكان مناسب، ثم تأحل المشروع حتى اقترحت ريبب المراوية عن روجها الأمير يوسف بن تاشفين أن يشيد المدينة الجديدة على أرض مجدية تقع بين هيلانة وهزميرة، وهو الاقتراح الذي تعجب له الجميع.

ذلك أن تلك المنطقة الخلاء المحصنة والواقعة في سمح جبل درن كانت معروفة بأنها أرض حرة؛ فلم يكن بها ررع ولا ماء إلا اخلطل وبعض الأشواك النانة، ولا يسكنها بشر؛ لذا مثلت طويلاً حاجتاً أميناً للقبائل المضطرة للعبور من خلالها فكأنوا، إذا دنوا منها يتعجلون السير ليقطعوها سريعاً خوفاً من محاصرها وهم يتنادون «موروكاش». موروكاش؟ أي «مروا سريعاً» بالذلة الأربعية، لكن الست ريبب التي عاشت حياتها في منطقة السوس الأقصى وحبرت من أسرارها ما لا يدركه مرابطو صهاجة الصحراء، ونجبرت - إلى جانب جماع العاتق - بالحكمة وبالذكاء وبالخبرة التي اكتسبتها من روجها بائس من أمراء برعواطة ثم بائس من أمراء المراتبين حتى لُقيت بـ «روحة الملوك»، تلك السيدة التي أعرها الله بالإسلام كانت تعلم أن هذا الموقع الخرب المحيط بجوي في باطنه حيراً كثيراً، فقرنه من وادي تسييت على مسيرة ثلاثة أيام وتجمع لديها وجود ماء جوفي وفير يمكن استخدامه للزراعة بعد حفر الآبار، كما أن نقل العاصمة إلى هناك سوف يؤدي إلى سيطرة المراتبين على حل درن بما له من موقع استراتيجي يصيف إلى قوتهم الحرسية، وهكذا بدأ الأمير يوسف يتلمس خطاه بناء على نصيحة الست ريبب،

أن طسعه الصحراء العربية بعواصمها الرملة الرحمة هي التي أجبرت الحثالة الكبار على لشم، إبقاء للرمال الخائفة، ثم أصبح الأمر عده من الصعب التحلي عنها، بل وأصبح كشف الرحل اللثام عن وجهه في ثلثهم عبثاً مثلاً لكشف العورة، فهم يقولون إن العم يدخل منه الطعام إلى الجسم فيحب سره كما يسر عرح هذا الطعام!



٦ - طارقي (تاركي) معاصر من بربر الصحراء اللثاميين

بعد ثلاثة أعوام من الجهاد في السودان العربي وفي عام ٤٦٨ هـ يصيب أبو بكر بن عمر منهم قاتل يرزقه الله ما تمى من الشهادة فيسلم ابنه وقواد جيشه الراية ليواصلوا جهادهم لشر نور الإسلام في ربوع القارة حتى يصلوا إلى الجبابون جنوباً وإفريقيا الوسطى شرقاً، أما يوسف بن ناشئين فيطلق من مراكش نحو الشرق والشمال مستهدفاً توحيد البلاد تحت قده واحدة، عدلاً بسياسة المهادنة التي نصبت عهد تحالفات مع قضاة العرب الزناتية - من بربر الشتر - للسيطرة على بلاد السودان الأدنى، وتمكن من

ثم كان بناء موروكاش أو «مراكش» دولة المدن وعاصمة المرابطين التي سبقت لها اسم المغرب الأقصى على طول الرمان فتنظف تعرف حتى يومنا هذا باسم «البلاد المراكشية» وهكذا الإسلام يشتر الحصاراً أيها سارت قافلته، فكيف صرع من «بندالسيا» بلاد الفصح، أدباً يكفي بطقه تتداعى إلى حيالك كل معرقات الحصار من علم وتقدم ومدينة ورقى وعن وحمل، كذلك أحال أرض الخراب (مروا مريقاً) مراكش تتلألاً حرومها نوراً وبهجة، لؤلؤه المغرب وعاصمته لقرن من الرمان وأهم مدنه، حتى بعدما انتقلت العاصمة مند عصر دولة الموحدين إلى «الرباط» ظلت مراكش العاصمة الساحة حتى اليوم، وما الرباط؟ أليست تلك المدينة التي بدأت بحصن بناء المرابطون وأطلقوا عليه ذلك الاسم الكريم تيمناً برباط ابن ياسين؟ أليست هي القادة داتها قافلة لتوحيد تغطي في طريقها لتشر في ربوع الأرض أمناً وبركة وسلاماً ورحاء؟

كان يوسف بن ناشئين حين تروح ربب العراوية قد قارب السبعين من عمره دون أن يُرزق بولد، ولقد كانت الست زينب مسعودة بحق كما أخبره زوجها السابق ابن عمه أبو بكر بن عمر فقد أحببت له أول أبنائه وولي عهده المرحوم بالله، ثم ما شيد عاصمته مراكش بناء على نصيحتها أخبره بمراستها أنه سيملك المغرب كله، وبدت الجهد في تجميع الخوادم المرعواطين وادل الانرام للإمداد العسكري، وكنت حبر مرشد له ومعين، خاصة وأن طبيعته كرحل أماريحي حر لم تمنعه من وضعها حيث يجب أن تكون الروححة شريكة الحياة، فالمجتمع البربري ظل طوال تاريخه يصنع المرأة في مكانة عالية، ولقد ذكرنا سابقاً أنه كان مجتمعاً «ماترياركتياً» يسمح للمرأة مركز السبده في الأسرة ونسب «الأساء» ها، وما اسم «المتوبة» قبيلة يوسف إلا اسم امرأة، ولقد جاء الإسلام في المرة الأولى ثم بعد عرته الثانية فأقرها هذه المكانة وأحاطها سياح يحميها من أن تترلق إلى المهانة وانصهر مصصع مجرد حسد لإمتاع الرجال، لهذا نجد في المؤرخين يصفون مكانة ربيب بقوهم «كانت أميرة عند يوسف، وكذلك جميع اللثامين يتقنون لأمر سائهم ولا سمون الرحل إلا بأمره فيقولون فلان ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان»، والمقصود بالثمن بربر صهاجة ومنهم المرابطون، فقد كان الرحل لا يخرجون إلا ملثمي الوجوه يلبسوا ثيابهم عن وجوههم، وما زال ذلك متبعاً في أحقادهم الطوارق الحاليين، وقد ذكر في أسدب ذلك ما بدا لي مجرد أسطبر غير موثقة واعتقد

صم تاسما التي كانت مقدمة لفتح مكة ثم هاجم عاصمة السوس الأدنى، وأهم مدن المغرب وقتئذ والتي عرفت بعد صمها بالدولة المرابطية استمرارا سياسيا افتقده طويلا أتيح تنمية في شتى المجالات فأمر ابن تاشفين ببناء المسجد في كل أحيائها وأعاد تحصيها وتمهيد طرقها وبس فيها الأسواق والمباني والحمامات عرفت المدينة على يد أهل الصحراء من الحماله انكبار من العمران الذي بلغ حد الترف في أواخر أيام ابن تاشفين ما لم تعرفه مع حكمها من أهل الحضر، لكنه الإسلام حين ترسح لعقيدة السليمة في نفوس أتباعه تأتيهم الديار راحة فلا يتلهون بها وإنما تحصى قتلهم بشرة الخير والعدل والحق والرخاء على جانبي الطريق.

وهكذا فتحت سائر دويلات المغرب التي وفد أمرؤها لمديعة ابن تاشفين فوصلهم وأندهم على إماراتهم التي انصبت للدولة المرابطية المتوسعة جنوبا حتى قرب إفريقيا، وشرقا حتى تلمسان، ثم شمالا حتى سبتة وطنجة بالقرب من مضيق جبل طارق أو ما يطلق عليه «عدوة الأندلس الإفريقية»، هذه الإمبراطورية القوية أعرت مستشاري الأمير يوسف بأن يقترحوا عليه التسمي بلقب «أمير المؤمنين».. لكنه رفض بصرار

أمير المسلمين

كان العام الإسلامي في الربيع الأخير من القرن الخامس الهجري - الذي تقف أحداث على أعتابه الآن - قد وصل إلى درجة من الضعف والتشردم والتفائل والتناحر لم يلقها منذ نشأت الدولة الإسلامية الأولى بالقيادة النبوية الشريفة في المدينة المنورة، وقد ترتب على ذلك أن عدت الدولة مطعنا لأعدائها وهدف مؤامراتهم ولعرواتهم المتكررة، وهكذا سقطت مصر تحت حكم الفاطميين الذين أقاموا بها دولة محمد بندها حتى الشام ومخار، ثم تحالفت مع البيزنطيين لصرب الخلافة العباسية في بعدد وهو ما شجع عددا من الدويلات على الانفصال عن الخلافة فتمزقت منطقة آسيا الصغرى إلى دويلات متصارعة، ونشظى الشام في إمارات مستقلة كدمشق وطر بلس، وتوزع اليمن بين ثلاث حو تف متحاربة، هذا فضلا عن أحوال الأندلس المتقسمة بين ملوك الطوائف وسقوط عاصمتها طليطلة في أيدي القشتاليين، فإدما ما تذكرنا أن الأندلس لم تكن حتى ذلك الحين جزءا من الخلافة العباسية وإنما ظلت إمارة ثم خلافة أموية حتى بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق إلى أن تمرقت بين ملوك الطوائف كما رأينا سابقا وإدما ما تذكر كيف كانت أحوال المغرب حتى سنوات قليلة مضت قبل قيام حركة بن ياسين للإحياء الإسلامي في الصحراء - إدما ما تذكرنا ذلك كله لأصبح واضحا أمامنا ما كانت تعانيه الخلافة العباسية وقتئذ من ضعف وهوان ومن قلة حيلة إلى الحد الذي دفع الخليفة القائم بأمر الله إلى الاستجداد بطرل بك السلجوقي لإبقاده من التآمرين ولإعادة توحيد بعض الأجزاء المتشردة من دولة الخلافة

في تلك الأحوال التي صارت فيها الخلافة العباسية الضعيفة في بعدد أقرب للزمر

المعوي منها للحقيقة الواقعة بما اقترح رجال الدولة المرابطية على القائد المتصر وموحد دول الشمال والعرب الإفريقي يوسف بن تاشفين بأن يتسمى بالنقب الخلافي «أمير المؤمنين» اقترأ أقرب إلى المطلق، عبر أن الأمير المسلم الذي أسس نظام حكمه على عقيدة ثابتة راسخة كان مدركاً تماماً لمعنى الولاء في الإسلام وأنه أصل من أصول العقيدة وسبب من أهم أسباب النصر الذي لا يتحقق إلا بوحدة المسلمين تحت راية واحدة، ذلك الولاء الذي تعلمه من كتاب الله سبحانه ومن سنة رسوله ﷺ، وهذا الاتحاد الذي جعله الله تعالى سبباً لنصر وجعل صياحه فقداناً للطريق ﴿وَلَا تَسْرِعُوا بِالنَّفْسِ أَنْ يَقُولُوا وَدَّعَ رَبُّكُمْ﴾^(١) هو الذي أطلق ابن تاشفين بقوله حق لا يطقها أبداً من كان مبتعاً دنياً أو سلطة أو رعامه «حاشا أن أسمي بهذا الاسم، إما يتسمى به خلفاء بني العباس، وإما راجلهم والقائم بدعوتهم»، وهكذا هو ص ابن تاشفين - رغم قوته وتمككه - الأمر إلى خليفة المسلمين - رغم ضعفه ونهافته - وأرسل له سفارة إلى بغداد ومعها هدية رمزاً للطاعة وطكاً للولاية الشرعية فعادت السفارة هدية من الخليفة ويحلج أميرى ويكتتب تقليد يوسف بن تاشفين ولاية المغرب وما فتحه من بلاد إفريقيا، ومع نوالي الأحداث والطولات والفتوحات حصل ابن تاشفين بإجماع العلماء على لقب سلطاني - وليس خلافي - اشتهر به في التاريخ الإسلامي ولم يُطلق على أحد سواه وهو لقب «أمير المسلمين وناصر الدين» الذي ما إن تسمعه حتى تتداهى إلى غيبتك صورة ذلك العارس البربري الشجاع السيل الضفي الورع الزاهد العادل الصالح الذي تحق في عهده من الإنجازات ما لم يتحقق طوال التاريخ المعاري والذي تأسست تحت رعامته الدولة المثل التي برز بدكرها على ما يهرب به الحاهلون والكدابون والخونة والظلاميون والمهرمون في دواجلهم، الفارون دغراً من دوائهم والمتوارون حجلاً من هوياتهم؛ أولئك الذين يرعمون أن دولة الإسلام ما قامت إلا في فترة النبوة ومظالم الخلافة الراشدة على أحسن تقدير ثم اهدرت علم تقم لها قائمة.. ولا تصلح لأن تقوم مرة أخرى، برز عليهم بما يربط ألسنتها من ذكر دولة المرابطين وغيرها من دول الإسلام التي أسست على صرح مستقى من ذلك النموذج الأول الذي بلغ عان السماء والصالح دوماً للاقتداء به كلياً استيقظ المسلمون من سباتهم وعادوا إلى عقيدتهم السليمة وعرفوا

أهم لم يُعنتوا لمجرد إقامة دولة قوية وصاحبة على قطعة من الأرض وإما لقيادة الدنيا كلها ولتحرير الشر كافة وإلحراج الناس جميعاً من الظلمات إلى النور، لأنهم للناس ابتعثوا وليس لأنفسهم فقط ﴿كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) نعم. للناس كافة ولو كرهت الجردان المذعورة.

عودة لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين للمقي نظرة سريعة على النظام الإداري لدولة المرابطين التي أصبحت أكبر وأهم وأقوى الدول الإسلامية في تلك الفترة حيث يثير الإعجاب والإعجاب مدى ما وصلت إليه تلك الدولة في ولايته - وهو ربيب الصحراء وسليل رعاة الإبل - من تقدم ومدينة:

- أقام أمير المسلمين دواوين الإنشاء والمال، ووضع نظاماً للنصائب ونظاماً لإعاقها في التعمير والخدمات حقق من خلاله التنمية والعدالة الاجتماعية في البلاد.
- حول ابن تاشفين الجهود المتطوعة إلى جود نظامية وأنشأ لهم ديواناً مستقلاً يعظم شئونهم المالية والإدارية.

• أنشأ ديواناً نصرت النقود «دار السكة»، وتوجد بمتحف النقود بالرباط حالياً مباح للنقود المرابطية يسها الديار الذهبي وكسوره والدرهم، ومها دينار يحمل الكتابة التالية الوجه الأول: سطر ١٦ لا إله إلا الله، سطر ٢٢ محمد رسول الله، سطر ٣٠ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وحول السطور دائرة مكتوب بها ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْأَجْرَةِ مِنَ الْعَلَمِينَ﴾ الوجه الثاني الأمير عبد الله العباسي، والدائرة المحيطة مكتوب بها تاريخ الصرب ومكانه: مراكش.

- بدأ في عهد ابن تاشفين نظام للوزارة، وتكونت هيئة استشارية من العلماء لإقامة مهج الشورى الإسلامي، كما بدأ نظام قضائي حرص أمير المسلمين على دعمه بأفضل العناصر والإمكانات لإقامة العدل وشرعية الله في البلاد

وإد تبيأت الدولة المرابطية في المغرب وإفريقيا للاستقرار وفتح الله عليها من بركاته صكت أسباع الأمير يوسف صرحات استعانة انطلقت من هناك، من أحداث الآخر لمصيق جل طارق، من الأندلس الجريئة، أفتراه يلبي النداء ١٩

وعى الإبل أم المختارين؟

كانت الأندلس تختصر بعد سقوط دولة المدائن «طليطلة» في أيدي قوات التحالف الصليبي، وقد رجعت أصداء أنبيها جيبات العالم الإسلامي المشتعل سيران القن والمبتلى بالشرذم وبالتصريح والقانع خليفته هالك في تعداد كخيال المائة لا يحرك ساكنًا.. ولا يستطيع، ولقد تربحت دويلات الطوائف الأندلسية تحت وقع الصدمة وبدأت تستقبل اللاجئين الفارين من طليطلة بعدما دخلها العوسو السادس فأعمل فيهم القتل والتذيع دون تمييز بين شاب أو طفل أو مسن، وهدم المساجد وأحرق «بصاحف»، واعتصب جنوده النساء واستولوا على الأراضي والممتلكات، وانهارت الروح المعنوية نحو الحبيب، وهو ما يمكن أن نستشعره بوضوح من مطالعة الأدب الأندلسي خلال تلك المرحلة.. ومن ذلك قصيدة الشاعر المعروف ابن العسال الطليطلي التي تصح بروح اليأس والهرطقة المستشرية والتي يدعو فيها أهل الأندلس كلهم - ليس أهل طليطلة فقط - إلى الرحيل منها لأنه لا مائدة تُرحى من مواجهة العدو القوي الذي استولى على عاصمتهم.. وفيها يقول:

يا أهل الأندلس حثوا مطاياكم فما المصام بها إلا من العلف
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الحرية منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يعارفا كيف الحياة مع الحيات في سلف

سطعت الحقائق وانكشف المستور وظهرت الطرق الدبلوماسية التي اتبعها المعتمد ابن عباد مع القشتاليين في ضوء تلك الحقائق مجرد أساليب ملتوية للهروب المحزى من المواجهة الحتمية التي لا بد آتية يوماً بمرّة أو بذكر، فلما حدث ما حدث بين المعتمد

والعوسو وظهرت بية الأخير في احتياح إشبيلية كحطوة مطمية نالبة للاستيلاء على طليطلة وبدأ الحصار انعقدت قمة ملوك الطوائف في قرطبة بدعوة من ابن عباد لتدارس الموقف كما ذكرنا سابقاً، إلا أنه ومع الخطر المائل أمامهم لم يبد أن التجربة المريرة قد علمتهم شيئاً، وسرت بينهم همهمات التحالف المعتادة والتي تدور كلها حول ضعفهم وقوة عدوهم ونمكسه، وعثا حاول أمير بطليوس الشجاع المتوكل على الله بن الألفس أن يحرك فيهم شهامة الإسلام وعرته . لكنهم أحلوا إلى الأرض واحصرت مداولاتهم في أمر واحد هو كيف يدارون العوسو ويأمون شره بالوسائل السلمية الحكيمه!

أمر هام جدير بالتوقف عنده في تلك اللحظة التاريخية، ذلك أن مؤتمراً جماهيرياً انعقد موارياً لقمة قرطبة شجده فيه علماء الأمة المعجم وأبطلوا الحجج الرواهية وأوضحوا للناس أن الجهاد وحده هو القادر على إخراجهم من هذا الدل والهوان الذي لطحهم به قادتهم، وقد شجعت تلك الصحوة الجماهيرية والصلابة التي أبدتها العلماء في مواجهة تحاذل القادة أمير بطليوس على أن يقترح على ملوك الطوائف الاستجداد بأمر المسلمين وهو الأمر الذي أمرهم؛ خوفاً على عروشهم أن يصمها المراتلون إلى دولتهم مترامية الأطراف فتحاذلوا وتراجعوا وأندوا استمداهم لتقديم مادرة سلام لألفونسو عله يتركهم في حالهم وينصرف نظير مصاعمة الحزبة التي يدفعونها له وتمديد معاهدتهم معه - التي لم يجرمها - ولو بمريد من التارلات، ومن ذلك قول عبد الله بن سكوت حاكم مالقة: «لا يجتمع السيفان في عهد واحد».

كان المعتمد ابن عباد حاكم إشبيلية - أكبر دويلات الطوائف في ذلك الحين والمحاصرة من العكر القشتالي - هو الداعي لقمة قرطبة، وقد جلس حريصاً صامتاً منصتاً للاقتراحات المقدمة والرود عليها، إلا أن اقتراح أمير بطليوس الاستجداد بدولة المراتبين استوقفه فأخذ يفكر فيه على ضوء المناقشات التي دارت، حتى طلب أحد الأمراء الكلمة ليقول «إن التحالف مع العوسو أولى من الاستجداد بمرايطي الصحراء رعاة الإبل»

وكأنها لطمت العبارة الأخيرة ابن عباد مردته إلى وعيه وتداعت أمامه صور القتلى والمشردين من طليطلة، وما يلعه من أحار إحراق بيوت الله بحقد صليبي عادر وذهانة

العبور الثاني العظيم

في عملة من الفوسو السادس ورجاله المظمئين إلى نشر دم قادة الأندلس وعدم قدرتهم على الاتفاق على موقف موحد، تم إبعاد بعثة رسمية إلى مراكش عاصمة المرابطين تكوّن من أبي بكر بن زيدون وزير المعتمد وثلاثة قصاة هم عبد الله بن أدهم قاضي قرطبة - رئيسًا للبعثة - وابن مقان قاضي بطليوس وابن القلبي قاضي عربطة، وقد حملت معها رسالة طويلة من المعتمد بن عباد إلى أمير المسلمين وناصر الدين - كما خاطب ابن تاشفين في ديباحتها - يستنصره فيها ويدعوه للعبور إلى الأندلس أرض الجهاد لإحياء شريعة الإسلام، ومن الممتع حقًا أنك تجد بجانب تلك الرسالة الملكية المؤرخة ومؤرخة عمرة جمادى الأولى عام ٤٧٩ هـ ١٠٨٦م عددًا من الرسائل التي حملتها البعثة من علماء الأندلس وقادة الفكر فيها تدعو المرابطين إلى الانضمام إلى مسلمي الأندلس الذين اعترضوا مقاومة القشتاليين، وهو ما أثر بشدة في نفوس المرابطين، خاصة بعدما علموا بتفاصيل ما يقديه إخوانهم من هزيمة وقهر ونزوح على أيدي التحالف الصليبي الهمجبي.

استقبل يوسف بن تاشفين البعثة الأندلسية وأمرهم في دار الصياغة بمراكش حتى تتم المفاوضات بين الطرفين، وفي تلك الأثناء وجدت على الأمير عنة وفود من مسلمي الأندلس يستجيرون به من عدوهم، فقبلهم بنفسه ووعدهم حياءً، والحقيقة أن ابن تاشفين لم يتردد لحظة في الإسراع لخدمة إخوانه المسلمين في الأندلس، وحين وصلته رسالة ابن عباد كان قد مضى على توليه إمارة المرابطين حلفاء لابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر أكثر من أربعة عشر عامًا توسعت خلالها دولته حتى أصبحت إمبراطورية عظمى

قوية عنية ومستقرة على نحو ما ذكرنا، كما كان الأمير ذاته قد جاور السبعين من عمره، وأن للمارس الذي حاص المراكش أن يستريح، إلا أن أمير المسلمين وناصر الدين - حقًا لا لقبًا أخوف فارغًا - أصمر في نفسه أمرًا أثناء لقاءاته مع البعثة الرسمية والوفود الشعبية.. فدعا أعضاء الهيئة الاستشارية للدولة للاعتماد حتى يعرض عليهم الأمر

ما كان أحد من المرابطين كبيرهم ولا صغيرهم ليحجم عن الاستجابة لداعي الجهاد في سبيل الله وقد تأسست دولتهم على عقيدة سليمة ركناها التليدان الدعوة والجهاد، لذا فما إن عرض ابن تاشفين الأمر على مستشاريه حتى وافقوا بلا استثناء، غير أن أحدهم - عبد الرحمن بن أسبط وهو أندلسي الأصل - لفت نظر الأمير إلى أمر شديد الأهمية يتعلق بالطبيعة الجغرافية للأندلس كأرض صيقة عرحة وعرّة تعترض طرقها الجبال حتى إن من يدخلها يصح أشبه بالسجين فلا يمكنه الخروج منها إلا تحت حكم صاحبها، وبهذه إلى أنه ليس بينه وبين ابن عباد صداقة متصلة فلا يأمن منه بعدما تنقصي حاجته بالظفر من العدو، لذا يصحح ابن أسبط بأن يطلب من المعتمد أن يملكه الجزيرة الخضراء - وهي أول أرض في الأندلس نائية للمضيق - حتى يستخدمها حشد جنوده وأسديته ويكون عبوره إليها في الوقت المناسب له، وهذا يجيب أمير المسلمين على مستشاره قنلاً بتواضع العطاء «صدقت يا عبد الرحمن لقد بهتني على شيء لم يحظر بيالي، اكتب إليه بذلك»، وهكذا يرسل ابن تاشفين لابن عباد مليًا دعوته للنصرة وطائًا إرسال عقود الجزيرة الخضراء، وقد استوفعتني في تلك الرسالة الطويلة فقرة يقول فيها أمير المسلمين لحاكم إشبيلية: «نحن يمين لشمالك - انظروا لروعة العدة - وعبادرون لنصرتك وحمايتك وواجب علينا ذلك في الشرع وكتاب الله تعالى... إلخ».

أما الأمر الذي أصمره الأمير يوسف فهو عزمه على قيادة جيش الإنقاذ بنفسه رغم تقدمه في السن وانشغاله بأحوال البلاد، لذا قال لمن حاول إثاءه عن عزمه «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي»، فلما وانطلق كشاب يحرض جنوده على القتال في سبيل الله، وأرسل في أنحاء البلاد يدعو من يجد في نفسه أملاً لهذا الشرف فتقاطر عليه المتطوعون من كل مكان يحذوهم الأمل في نصر الله تعالى وفي استنقاذ الأندلس من مصير مظلم يتطرها إن هي ارتدت لدهيتها الأولى

بعدما أثار الإسلام حساسية ثم سطح بوره ليصيء للأوروبيين طريقاً يتلمسونه للخروج من كهوف عصورهم الوسطى المظلمة.

ولما وصلت عقود الجزيرة الحصراء إلى مراكش انطلقت منها قوة من المرسان بقيادة داود بن عائشة مدججين بالسلاح فعبروا المصيق وتمركزوا في الجزيرة الحصراء بأقصى جنوب الأندلس، ثم توالى عبور القوات حتى استكمل الجيش أهته وأخذ استعداداه، وحينها أن لابن تاشفين أن يعبر ومن معه من قوات تكوت من كبار رجال الدولة ورعياء القبائل وأمراء المناطق ودريةتهم الدين أثار حماسهم مادرة الأمير فتأفوا في الانضمام لجيش يقوده نفسه، وبذلك بدأ العبور الثاني العظيم للبربر المسلمين اندبين مروا من هذا المصيق بقيادة طارق بن زياد قبل ما يقرب من أربعة قرون مصت رافعين راية التوحيد ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ها قد عاد الرجال الدين لا يصلحهم سوى الإسلام وحده عادوا وفي صفوفهم إخوانهم المسلمون من جند السودان العربي الدين دخلوا في دين الله على يد المرابطين.. هكذا عاد الرجال رهايا الليل فرسان النهار ليسطروا صفحات المجد من جديد في سفر التاريخ الإسلامي.

حين استوى ابن تاشفين على ظهر سفينته رفع كفيه إلى السماء ثم دعا قائلاً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوارب هذا إصلاحاً للمسلمين سهل علي هذا البحر حتى نعبه، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»، ويسر الرب تبارك اسمه لأمير المسلمين وجنده العبور حتى برلوا الجزيرة الحصراء فوجدوا في استقبالهم المعتمد بن عباد وأمراء الجنوب الشرقي الأندلسي عرماطة وألمرية وبندسية الدين وضعوا أنفسهم تحت إمرته ليقود معركتهم دفعا لالتحالف الصليبي في معركة من أروع وأهم وأحل المعارك في التاريخ الإسلامي كله والتي لا تقل في أهميتها عن موقعة الفتح الأندلسي «وادي لكة» حيث أمدت في عمر الدولة الإسلامية في الأندلس ما يريد على أربعة قرون أخرى لم تكن إضافة إلى التاريخ الإسلامي وحده وبها كانت سنا في تعديل مسار التاريخ الإنساني بأكمله.

الزلاقة

على طول الطريق الموصل من الجزيرة الحصراء حتى إشبيلية محل إقامة ابن تاشفين تجتمع أهل الأندلس لتحية البطل المغربي وتهللت الوجوه بعد طول اكتئاب واصطحب القرويون أطفالهم لمشاهدة أمير المسلمين الذي سيصبح لرمز طويل قادم رمزا لعة الإسلام وبطلا لحكايات النصر المجيدة ترويا الأمهات لأطفالهن وهن يحثونهم على الاقتداء به في المحوة والشجاعة والتجرد لله سبحانه وتعالى، تلك القيم العليا التي ستقتات الأندلس من ثمراتها العظيمة أجيالا متعاقبة وقرونا عديدة تالية ظلت فيها المنارة الهادية لخطى البشرية المتعثرة في ظلمات الجهل والجاهلية.

أما ابن تاشفين فيقدر ما اعتبط لحسن استعداد جيش المرابطين وصلابته بقدر ما اعتم لما طالعته في إشبيلية من مظاهر الخروج على حدود الله ومن ترف جاور حد المعقول أنعته راحة بادية على شباها بل وعلى جندها الدين استمرصهم مع المعتمد ليصنع منهم فيلقا يصعه في مقدمة الجيش، كما أصر ابن عباد رعة منه في التكبير عن حريمته الشعاء في التحلي عن ماصرة طليطلة قبل سقوطها.

أما ما أثلح صدر أمير المسلمين حقاً فكانت تلك المادرات التي قدم بها الأندلسيون البطاء الذين أيفظت حسهم الإيادي جهود علماء المسلمين طوال السنوات المنصرمة فتباروا في تقديم كل ما يملكون إلى الجيش المرابطي فكسوا يأتون لهم بالماء وبالطعام وبالوقود وبالعلف لخيولهم وبما لهم التي اصطحبوها معهم من المغرب، وكانوا يتأفون في ذلك ناعسا كشف لاس تاشفين ما تحت راحة الطاهر من قوة الإيادي التي تصلح قاعدة جديدة لبناء جديد.

رتب يوسف بن تاشفين جيش الإغداد فقسمه إلى قسمين الجيش الأندلسي على مقدمته المعتمد حاكم إشبيلية وعلى ميمنته المتوكل حاكم بطليوس، بينما أهل الشرق على الميسرة، والجيش المرابطي يقود فرسانه داود بن عائشة وراجلته سير بن أبي بكر. بينما انعقدت قيادة الجيش الإسلامي بقسميه والذي بلغ نحو أربعة وعشرين ألف جندي لابن تاشفين، وما أن تمت الاستعدادات حتى بدأ تقدم الجيش نحو الشمال فعمروا بطليوس وعسكروا في سهل الرّلاقة شمال ماردة وبطليوس إلى الجنوب الغربي من طليطلة مقر قوات الاحتلال الفشتالي.

على الحجة الأخرى، ما إن وصلت ألفونسو أبحار عبور يوسف بن تاشفين وبروله بجزيرة الخضراء حتى طُبر الرسائل إلى حلفائه في كل مكان وإلى الناف في روما مستعجلاً، فتقاطر عليه المنطوعون من كل صوب يدفعهم بريق ذلك الوعد الذي قطعه الكنيسة بفتح صكوك المفران لكل من يشارك في الحرب المقدسة، حتى بلغ عدد الجنود في الجيش الصليبي أكثر من ستين ألف فارس يرتدون دروع الحديد من رؤوسهم حتى أقدامهم، وقد تقدم صفوفهم رجال الدين الكاثوليك رافعين الأماجيل والصلبان لإدكاء المشاعر ولإثارة الحماس، ولما اكتمل الاستعداد ورتب ألفونسو جيشه الحارر نظر إلى الصفوف معتظاً ومثل أمامه حلم الاستيلاء على الأندلس وما يربط بذلك من أعناد ستدوي تراثهم مع أجراس الكنائس في جيئات أوروبا فقل لم حوله بكبرياء من استئذن ملوك الأندلس ربما طويلاً بهذا الجيش ألقى عمداً وآله والإس والجن والملائكة.

وفقد للبهج الإسلامي أرسل ابن تاشفين رسالة إلى ألفونسو يُخبره فيها بن ثلاث الدخول في الإسلام.. أو الاستسلام ودفع الجزية أو الحرب، فاحتار الأخير الحرب وأرسل إلى ابن تاشفين رسالة كتب فيها «إن عدنا يوم الجمعة لا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم وبعده السبت عيد اليهود وهم كثير في عدتنا وبعده الأحد عيدنا فاحترم هذه الأعياد ويكون اللقاء الاثنين»، استدع ابن تاشفين بها أبداء ألفونسو من احترام للأعياد الدينية لكن المعتمد بن عباد الذي داف مرارة عداوته طويلاً قال «ما أظن هذا الخبر إلا يريد خديعتنا، فليكن الناس على استعداد له طوال نهار الجمعة»، ولقد صبح ظن ابن عباد فما أن بدأ المسلمون صلاة الجمعة وعقدوا الركعة الأولى حلف أمير المسلمين إلا وانقص عندهم جيش ألفونسو فتصدى له الجيش الأندلسي بقيادة المعتمد

الذي كان يقف على أنتم استعداد هذه الخديعة المتوقعة، وفي ذلك اليوم أظهر المعتمد ابن عباد من العروسية والبطولة والشجاعة ما حط به لنفسه صفحات وخبث في سحر التاريخ الإسلامي شكلت إلى جانب صيغته الآية «رعي الإبل خير من رعي الخنازير» صورة فارس تترقب الملايين جيلاً بعد جيل أن يجود الرمان بمثله، وقد كان حرياً به - لولا تلك الصيغة المباركة - أن يظل ورقة مهملة لأحد ملوك الطوائف المالكيين الذين لم يجلبوا لأمتهم سوى الحري والمدلة والعار. ورقة يلتقي بها الرمن في اردراء إلى قيامه التاريخ

كانت حطة ألفونسو أن يقضي أولاً على الجيش الأندلسي الذي حبر رحاوة جوده من قبل فلا يتبقى سوى جيش المرابطين وهم غرباء عن البلاد لا يعرفون مسالكها ولا يصح أمامهم سوى العودة إلى بلادهم فتسقط دويلات الأندلس في قبضته دوماً جهد يذكر، لكنه لم يصح في اعتباره تلك الروح الجهادية العالية التي بعثها عبور المرابطين في روح الجيش الأندلسي الذي بدل جوده في ذلك اليوم المجيد دماهم رخيصة في سبيل الله، وهكذا أفرغت بطولات العنة القليلة - ٢٤ ألف جندي بين فارس وراجل - العنة الكثيرة - ٦٠ ألف فارس مدرع بالحديد - فراجعت صفوف الصليب إلى الخلف مدعورة واهرم جند التحالف أمام شجاعة جند الله وحرصهم على الشهادة في سبيله، لذا كانت مفاجأة ألفونسو مروعة حين علم بمقتل عشرة آلاف من فرسانه في الساعات الأولى من القتال فأخذ في التفهقر بينما جود المسلمين يتقدمون في ثبات حتى وصل الجميع إلى حدود طليطلة فمر ألفونسو إلى داخلها رجعاً جراً إصابته بجراح ومعه شرادم جده وقد فقدوا حيولهم وسقطت عنهم دروع الحديد وبدوا كالمشردين العاريين من وغي المعركة.

كان الليل قد أرحى سدوله حين وصل العريقان إلى حدود طليطلة، فلما احتفى بها ألفونسو حاول المسلمون اللحاق به فمنعهم ابن تاشفين قائلاً «الكلب إذا وهم لا يد أن يعص، وقد سلم الله المسلمين من معركة لم يقتل منهم إلا القليل فتركوهم»، ترى أكان ذلك المنع تديراً حكيماً من أمير المسلمين حرصاً على جوده من معركة داخلية عبر مأمونة العواقب؟! أم تراه كان خطأ سياسياً وعسكرياً فادخا أصابع فرصة بدت يومها مواتية لتحرير درة المندائ؟! وهي فرصة لم تسمح للمسلمين مرة أخرى إذ لم ترجع طليطلة إلى حوزة المسلمين منذ احتلها ألفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ وحتى يومنا هذا.

ابن تاشفين وليعلمه على الوصي الحقيقي للأندلس التي أصبحت على شفا الحاوية، ويعود معهم ابن تاشفين محاولاً الإصلاح ويبدل الخهد المحض أعواناً في محاولة لاستئقاد الأندلس إلا أنه يدرك أحيراً أن إبهء حكم الطوائف وتوحيد الأندلس تحت راية واحدة هو الطريق الوحيد لإنقاذها من المصير المظلم الذي يترصص بها، وقد التفت على ذلك إرادة شعوب الأندلس النائرة على حكامها كما كان ذلك هو رأي فقهاء المغرب والأندلس، بل وفقهاء المشرق الإسلامي الذين حرص ابن تاشفين على استئنائهم فوردت عليه فتاواهم - في مقدمتهم الإمام العراقي وأبو بكر الطرطوشي - ملزمة لإسقاط حكم الطوائف.

وفي عام ٤٨٤هـ الموافق ١٠٩١م يُسَدَل الستار على تلك الحقبة المظلمة من التاريخ الأندلسي التي كادت تؤدي بالدولة الإسلامية عند منتصف مسيرتها إحصارية حيث يتم إسقاط حكم الطوائف وتوحيد الأندلس ثم ضمها كلها - عدا طليطلة السلبية - إلى دولة المرابطين.. تلك الدولة العظيمة التي كان مشؤها قصة من نور قددها الرب تبارك وتعالى في قلب العابد المحلص عبد الله بن ياسين حين وقف ذات يوم يؤذن بصوته الشجي وحيثاً في البرية، ها هي قصة النور تنتشر على امتداد الأفق فتعمر الدنيا كلها، وها هو الرباط الذي أقامه من حرمة من أفرع الشجر اليابسات في بقعة غير مرئية هناك عند مصب نهر السعال يتسع خلال أربعين عاماً فقط ليشكل إمبراطورية هائلة تضم العديد من الدول وفقاً للتقسيم السياسي المعاصر إسبانيا - البرتغال - صقلية - تونس - الجزائر - المغرب - جزر الكناري - الصحراء العربية - موريتانيا - السنغال - مالي - النيجر - بور كينا فاسو - جامبيا - بيجيريا - غانا - ساحل العاج - غينيا - غينيا بيساو - سيراليون - ليبيريا - ساحل العاج - نوجو - سين - الكاميرون - غينيا الاستوائية - الحابون - إفريقيا الوسطى، وتشمل عدة مناطق جغرافية وسياسية لم تعرف اتوحد طوال تاريخها إلا في تلك الفترة الزاهية الزاهرة من تاريخها المجيد.

تلك الوقفة الحارمة التي وقفها ابن ياسين في مواجهة طلامبي الصحراء، وهذه الصيحة المحلصة التي أطلقها ابن عباد في وجوه متحاذي الأندلس أمداً في عمر الدولة الإسلامية في أوروبا لأكثر من أربعة قرون أخرى قُدر لها أن تعبر العالم بأسره، ولو

هروب وشروق

كان النصر الهائل الذي تحقّق في الرّلاقة عام ٤٧٩هـ بمثابة عبادة لجراح العالم الإسلامي المازفة بسبب مأساة سقوط طليطلة قبل عام مصي، فعُنت الأُمّاح وأعتقت الرقاب وتردد اسم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين شرقاً وغرباً محاطاً بكل آيات المحبة والتعجيل، أما هو فقد كان يستعد للعودة إلى المغرب بعدما وزع معانم الموقعة على الأندلسيين مرفقاً وجنوده من مشاركتهم فيها، وذلك في لقطة تاريخية نادرة تستحق مريداً من الصور، وقد اجتمع قبل رحيله بملوك الطوائف وأخذ عليهم العهد ألا يرجعوا إلى ما كانوا عليه من تشرذم وتصارع وأن يتفقوا فيما بينهم لمواجهة عدوهم المشترك.

لكن ماذا يفيد العهد مع قوم أدمنوا الخلاف واعتادوا الرحاوة بدلاً عن الجهاد؟ فببما كان الينا بحث أمراء أوروبا على دعم المونسو للأحد بالثار من المسلمين وببما كانت طليطلة تستنفس متطوعة الصديك لتصبح قلعة حصينة معرسة في قلب الأندلس، يد بملوك الطوائف يعيدون مسيرتهم الأولى في التصارع عن المكاسب التافهة وقد ناسوا ما عاهدوا أمير المسلمين عليه من الاعتصام بحل الله ليكنوا قوة في مواجهة عدوهم، وتناعت مسيرتهم نحو الانحطاط رغم تلبية المرابطين دعوتهم بعد مرور عام على الرّلاقة ليصدوا عنهم هجوم الصليبيين، لكن بعد مرور عام آخر وصلت لابن تاشفين استماعة.. بل عدة استماعات.

صجبت شعوب الأندلس وعلماؤها من سياسات حكامهم، وتيفز العقلاء منهم أن مصير طليطلة السلبية أصبح يهدد سائر بلاد الأندلس فتوجه فوج إلى مراكش ليقابل

استسلمت لرغمتي في بيان ذلك لاحتجت إلى صفحات طوال لكتبي سأكتفي هنا بإشارة سريعة.

• اكتشاف العالم الجديد، نتحة ما أثبت علماء المسلمين من أن الأرض كروية فلا يمكن أن يكون نصفها يديسة والنصف الآخر كنه ماء وإلا فقدت أترابها، لذا انطلقوا لاكتشاف ما وراء بحر الظلمات، وقد أثبتت الدراسات الحديثة وصول المسلمين إلى أمريكا ومن ذلك عبور الإسبان في مكتبة الإسكوريال بمدريد على خريطة صنعها ابن الريات المتوفى عام ١١٩٨م وفيها بيان واضح للأطلسي وللجغرافيا الأمريكية المأهولة



• تأسيس علم الاجتماع، على يد العالم والمؤرخ الأمريكي ابن خلدون الذي عاش في الفترة من ٧٣٢هـ إلى ٨٠٨هـ وكان أول من وضع الأسس الحديثة لعلم الاجتماع، وعنه أخذ أوجست كونت وغيره

• نشأة الدولة المدنية الحديثة في أوروبا، وإنهاء الحكم الثيوقراطي المعلق بها نتيجة تعلم مفكري أوروبا في الأندلس، ومهم توماس الإكويسي الذي استقى نظرية حق الشعب في اختيار حكامه ومساءلتهم من مؤلفات الفكر السياسي الإسلامي خاصة للعرالي وابن رشد

• الثورة العلمية في أوروبا نتيجة اعتناء المهج التجريبي للمسلمين، وذلك عن طريق الاتصال بعلماء الأندلس الذي به الأوروبيين إلى عدم صلاحية الأسلوب العقلي النظري الذي اعتادوه في الدراسات العملية.

ذاك عيصر من فيص ما قدمه المسلمون للإنسانية خلال تلك المرحلة التي امتدت لأكثر من أربعة قرون من عمر الرمان قدر الله أن يقوا فيها في الأندلس، ولأن الأيام دول يأتي على دولة الإسلام في الأندلس دور الانحلال حين تصرب المدلة أمراء ليس من بينهم المعتمد بن عباد ليكرر قولته الباقية عمر القرون «وعي الإبل خير من دعي الخنازير»، بعد أربعة قرون يأتي أبو عبد الله الصغير آخر ملوك صرماطة ليسلمها بمعاهدة حياة ودل وهوان لفرماندو وإيرايلا ممضلاً الخنازير على الإبل فتدوسه الخنازير بأقدامها وتنتهك معاهدته وتلقي به خارج وطه ليموت ذليلاً مخدولاً في غربته بعد أن سلم أهله للمجرمين ليخرجوهم من ديبهم ثم ليحرقوهم أحياء في فاجعة تاريخية استمرت لقربين من الرمان بدأت بمعناكم التفتيش البابوية ثم بالإبادة الجماعية وبالتصوير الخبيري لأهل الأندلس، وانتهت بأجيال متعاقبة قاست الولايات وهي تتكتم سر التوحيد كما فعل أسلافهم القوط من قبل.

وهكذا عربت شمس تلك الدولة العظيمة التي شارك البربر بدور كبير في إقامتها، لكن الإسلام باق لا ينتهي ولا تعرب شمسها أبداً، فقاملة التوحيد ماضية عبر الرمان لا تحيد عن طريقها وإن قل أناعها وتعثر ردها وماوشتها وحوش الملاة، وحين يعر المسير للخلل في قيادة القاطلة يهرع من يقوم بأمرها ويمسك برماتها ليحطو بها ومعها باشرأ بور الرب تقدرت أسماؤه في ربوع الرمان والمكان مصداقاً لقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا

ففي عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٤٥٣ م إبان احتضار دولة الأندلس وقبل أن تسقط آخر معاقلها - غرناطة - بأربعين سنة تتحقق نبوءة رسول الله ﷺ بفتح القسطنطينية وذلك على يد أحد سلاطين بني عثمان الذي سيلقب منذ ذلك التاريخ بمحمد الفاتح، ذلك القائد الفذ الذي سيقبض وقومه على زمام قافلة التوحيد لتحويل مسيرتها المباركة من المغرب إلى المشرق لتتير الدنيا لقرون قادمة، فالقافلة لا تتوقف أبدًا ولا تحيد عن طريقها وإن تحلى المتخلون وانحرف المنحرفون فهي ماضية في سبيلها تنفي خبيثها فينضج طيبها، لا ينجو إلا من لحق بها ولا ينجب إلا من تاه عنها أو حاول أن يضع العراقيل في طريقها، وإن فريقًا أعرض أو تولى استبدل الله به فريقًا خيرًا منه يرد عليها عافيتها ويعيد لها نشاطها مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(١) فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب.. ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لبربري على تركي، ولا لفرنسي على إثيوبي، ولا لياباني على كوري، ولا لألماني على أمريكي، ولا لصيني على فنزويلي إلا بالتقوى «كلكم لأدم وأدم من تراب»^(٢).

إنها الرفعة الإنسانية في ذرى مجدها..

إنه الإسلام...



٨ - بعض وسائل محاكم التنفيس البابوية لتصير مسلمي إسبانيا.

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَّبِّدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ^(١)، ولقد أتى الله هؤلاء القوم.

(١) سورة المائدة، آية ٥٤.

(١) سورة محمد، آية ٣٨.

(٢) سنن أبي داود، والترمذي، عن أبي هريرة.

المراجع

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - مكتبة التراث الإسلامي - الجزء الثالث / الكتاب الثالث: البربر.
- الإنجيل - العهد الجديد وأعمال الرسل - دار الكتاب المقدس - القاهرة ١٩٩٤.
- الثاني ولد الحسين - صحراء الملثمين - دار المدار الإسلامي - بيروت ٢٠٠٧.
- بيتر دي روزا (القس اللاهوتي) - تُخدام الرب الأوائل - ترجمة عن الطبعة الألمانية أسر حطية - الطبعة الأولى - الدار المصرية للنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩٤.
- د. حامد سلطان - أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٤.
- زكي شنودة - موسوعة تاريخ الأقباط - الجزء الأول / ط ٢ - بدون ناشر (مطابع البلاغ بالقاهرة) - ١٩٦٨.
- د. سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - منشأة المعارف / الإسكندرية: - الجزء الأول «من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال» - طبعة ١٩٩٩.
- - الجزء الثالث «الفاطميون وبنو زيري» - طبعة ١٩٩٨.
- - الجزء الرابع «المرابطون» - طبعة ١٩٩٥.
- د. سعدون عباس نصر الله - دولة المرابطين في المغرب والأندلس (عهد يوسف بن

تاشفين أمير المرابطين) - الطبعة الأولى - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٥.

• عبد الواحد ذنون طه - الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس - الطبعة الأولى - دار المدار الإسلامي - بيروت ٢٠٠٤.

• عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق وتعليق د. محمد زينهم عزب - دار الفرجاني - القاهرة ١٩٩٤.

• د. علي محمد الصلّابي - الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين - الطبعة الأولى - دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة ٢٠٠٣.

• د. عمر أمير - العادات والتقاليد الاجتماعية روافد التأثير الإسلامي إلى الأمازيغية - مقال بجمريدة التجديد المغربية بتاريخ ١٥ فبراير ٢٠٠٦.

• حوني عمر أوغلو - انتصار القيم الإنسانية في الفتوح الإسلامية - مقال بمجلة حراء التركية - العدد الرابع يولية - سبتمبر ٢٠٠٦.

• محمد حجي - موسوعة أعلام المغرب - الجزء الأول (١ - ٧٠٠ هـ) الطبعة الأولى - دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٩٦.

• د. محمد مجدي مرجان (شماس سابق بالكنيسة الأرثوذكسية) - الله واحد أم ثالوث؟! - الطبعة الثانية - مكتبة النافذة ٢٠٠٤.

• ول ديورانت - قصة الحضارة - الجزء الثاني من المجلد الرابع «عصر الإيمان» - ترجمة محمد بدران - صادر عن الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية - القاهرة ١٩٥٧.

• Camps, Gabriel - L'origine des Berbères - Islam: Société et Communauté. Anthropologies du Maghreb., les Cahiers C.R.E.S.M., Éditions CNRS, Paris, 1981.

أيام الأمازيغ

الرجل الحر النبيل..

هذا هو المعنى الدقيق لكلمة أمازيغي، أو كما ينطقها ويكتبها المقاربة «أمازيغي» وهو اسم آخر للبربر له جذور فينيقية حيث أطلقت لفظة «مازيس» على الشعوب القوية التي تمردت على الإمبراطورية الرومانية، ومن هذا الأصل أتت كلمة الأمازيغية وهي اللغة التي يتحدثها البربر.

ويعد هذا التوق للحرية ورفض الخضوع والجنوح نحو الثورة والتمرد أهم وأبرز خصائص الشخصية البربرية وهو ما جعلهم بمثابة حائط صد متين أمام كل محاولات إخضاع المنطقة لحكم خارجي فينيقي أو إغريقي أو فارسي أو روماني أو بيزنطي، وقد كان حريًا به - على النهج ذاته أو من باب أولى - أن يصد عن المغرب الكبير جحافل الفتح العربي الإسلامي وهو ما حدث بالفعل في بداية الأمر.

تسلط المؤلفة - عبر صفحات كتابها - الضوء على الدور العظيم الذي قامت به قبائل الأمازيغ المغربية في التمكين للدولة الإسلامية في إفريقيا، وعلى حركة الإحياء الإسلامي التي نشأت في القرن الخامس الهجري داخل صحراء المغرب وتمكنت من إنقاذ الأندلس من براثن الصليبيين ومن تحقيق النصر في فترة من أحلك فترات التاريخ الإسلامي وأشدها فسادًا وانحطاطًا.

 **Kinokuniya**
أيام الأمازيغ
(119)-1 02/2012
9789776929019 862377

9789776929018
AB-AB11000-0001 NO10
Dhs 20.00

دار الشروق
www.shorouk.com